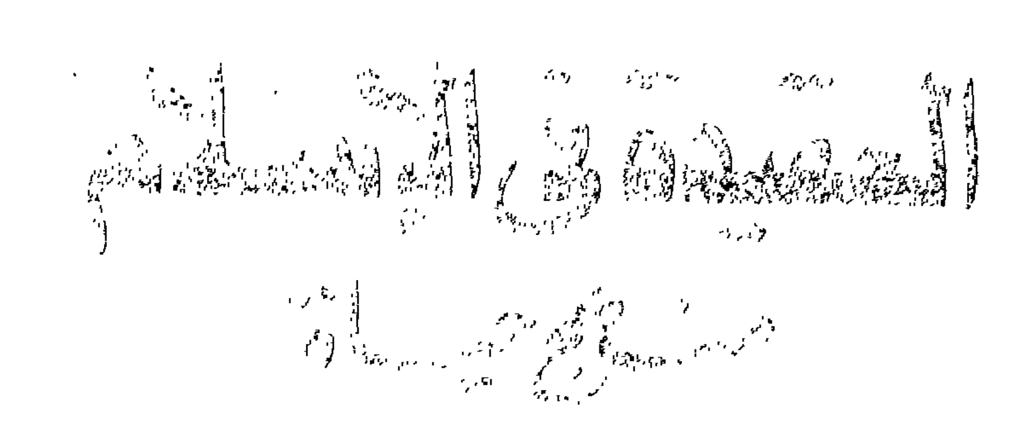


اهداءات 2002

ابراهيم محمد ابراهيم حريبة

القاهرة

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

العقيدة في الإسلام
منهج حياة

- خصائص العقيدة الإسلامية.
- كلمة التوحيد في الإسلام ومضمونها السياسي والاجتماعي.
- مراقبة الله في السر والعلن.
- إحسان العمل والقصد والاعتدال.

الدكتور السيد رزق الطويل

العـــدد ٢٤٥
السنة الحادية والعشرون
صفر ١٤٠٢ هـ
ديسمبر ١٩٨١م

بسم الله الرحمن الرحيم

عقيدة الإسلام فى القرآن

(قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . ديناً ، قيما ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

سورة الأنعام من ١٦١ — ١٦٣

(قل : إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل : الله أعبد مخلصاً له دينى ، فاعبدوا ماشئتم من دونه)

سورة الزمر من ١١ — ١٥

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) سورة الإخلاص

بين يدى هذا الكتاب

باسم الله وحده ، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه محمد عليه الصلاة والسلام الذى ختم الله به أنبياءه ورسله ، فبلغ رسالة ربه ، وقدم القدوة الحسنة والسنة القويمة فى الاستمساك بكتاب ربه ، . والامتثال لشرعه ، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهديه، وعضوا بالنواجذ على سنته وشرعته .

وبعد

فهذه صفحات فى عقيدة الإسلام أبسط فيها جوانبها ، وأعرض ، أصولها ، وأقدم موضوعاتها بمنهج جديد ، وتناول فريد ، بعيداً عن علم الكلام ومصطلحاته ، وألغازه ، وعقده وفلسفاته

والكتابة عن العقيدة محببة إلى لاسيما وأنى أريد لها خلاصاً من أوزار علم الكلام لتأخذ طريقها المرسوم ، وخطتها الراشدة ، نحو قلوب الملايين التى تنتظر فى هذا المجال مايشفى ومايرضى

والعقيدة لكل منهج أو مذهب عماد حياته ، ومصدر حيويته ، ومنطلق تأثيره ، وعصرنا الذى نعيش فيه عصر الأيدلوجيات بمعنى أنه عصر عقائدى ، يحفل بالصراع الفكرى ، والنزاع الحاد بين الفلسفات التى قامت عليها مناهج الاقتصاد والسياسة فى مجتمعنا

المعاصر ، ويسيطر عليه لونان من التفكير : التفكير الاشتراكى ، ويقوم على التفسير المــادى للتاريخ ، مركزا على الإنسان آلة دائبة منتجة ، ولا شيء وراء ذلك مما فى الإنسان من مشاعر وأحاسيس ، واللون الثانى هو التفكير الرأسمالى الذى تبدو فى ظاهره النزعة الإنسانية ، وفى حقيقته تقديس المــال فى ضراوة وشراسة .

وكلا اللونين يقوم على الفكر المــادى البحت مهما ظهر بينهما من فوارق واسعة .

وهذه الأيدلوجيات أثرت فى المسيرة البشرية فى الشرق والغرب ، وهى على الرغم من تأكيد فلاسفتها ومن قاموا بالجانب التطبيقى لهــا أن غايتها إسعاد الإنسان ، لكن الإنسان فى ظلالهــا لم يحصل على الأمن ، ولم يجد الحرية ، وأحيانا يستعصى عليه الغذاء ، وحياته بصفة عامة حافلة بالروع ، مملوءة بالمخاوف ، تتراقص أمامها أشباح الحروب البغيضة ، بوسائلها التى زادت مع العلم شراسة .

وسر هذا كله أن مسيرة البشر لا يرسم لهــا أسباب السعادة أفراد من البشر لهم أهواؤهم ونزواتهم ، لأن التخطيط للمجتمع الإنسانى يحتاج إلى مستوى أكبر من التجرد يسمح له بتقديم تصور شامل وعادل لحياة الإنسان ، وهذا أمر لا يكون إلا من تدبير خالق الإنسان ، العليم ، الحكيم ، الخبير .

وتأتى هنا سيادة الدين الالهى على كل أيدلوجيات البشر كسيادة الحق على الباطل وكانهزام الليل أمام أضواء الصباح .

وقديماً قال أحد الشعراء :

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

ودين الله الحق ، الذى اصطفاه للبشر منذ خلقهم يؤدى رسالته الخالدة التى تعجز عنها تماماً أيدلوجيات الإنسان طالما كانت أصوله نقية ، مبرأة من عبث الإنسان ومن زيغه ، ومن تكلفه وتأويلاته التى يدفع إليها الإنسان بمؤثرات الهوى والتعصب والتقليد .

وعندما ينتهى الأمر بالدين الحق إلى هذه الصورة يفقد حياته وحيويته .

وهذا هو الفرق بين الدين الحق فى صفائه ، وعندما يتحول إلى باطل بتدليس الإنسان وبغيه وذلك فى قوله تعالى : (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ،ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى)

وعلى امتداد التاريخ الإسلامى ومنذ عصر التدوين والتصنيف لم تتح الفرصة لتناول العقيدة كما ينبغى من كتاب الله وما يرشد إليه من مفاهيم مناهج عقلية قويمة ، وذلك بسبب طغيان التيار الفلسفى اليونانى على حركة التفكير الإسلامى ، وإعجاب بعض المسلمين به ، ومحاولة

بعضهم الآخر الاستفادة منه من دعم الجانب العقلي من أدلة العقيدة ، وتصدت فئة ثالثة لنقضه والرد عليه ، ومن غمار هذا الغبار الثائر ، وضعت مبادىء علم الكلام ليكون فى خدمة العقيدة ، وليكون بمثابة خط الدفاع الأول فى مواجهة الفكر الملحد .

وإنصافاً للحقيقة فان مبلغ مايقال فى علم الكلام أنه أدى مهمة كبيرة فى عصره ، وسد فراغاً فى دعم الجانب العقلى للعقيدة ، وإن كان قد أسرف فى مسائل عرضتها نصوص القرآن بيسر وبصورة تقنع العقل .

وبعد هذه الفترة لايصلح علم الكلام وسيلة للتعريف بالعقيدة فى عصرنا الحاضر ، لا للمسلمين ، ولا لغيرهم ، لأنه بمصطلحاته ، ومناهجه العقلية الموروثة لايلائم المناهج العقلية المعاصرة كما أنه بهذا الأسلوب المغاير للمنهج القرآنى لاينجح فى إعطاء الصورة الصحيحة والصادقة للعقيدة الإسلامية لضمير المسلم المعاصر ويقينه .

ولهذا كتبت هذه الصفحات فى العقيدة أحاول عرضها بصورتها الجديدة ، التى أراها الأقوم ، والأعدل ، والأكثر نجاحاً فى الوصول إلى وجدان المسلمين .

ولم أرجع فيما كتبت إلا لكتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ولما ثبت صدقه وصحته من الحديث الشريف .

كما ألفت النظر إلى المناهج العقلية فى القرآن الكريم ؛ لأن القرآن الكريم لم يكن — كما تصور المتكلمون — مجرد أدلة نقلية ، وإنما هو من ناحية أخرى مصدر لأدلة عقلية ملزمة .

وقد حاولت جهدى أن ألتزم الموضوعية التامة ، حفاظاً على الخلق العلمى ، واعتدادا منى بمناهجه النزيهة ، التى ينأى فيها صاحبها عن تناول الأشخاص وليكن العمل متجهاً إلى الرأى من حيث هو ، ومن حيث أدلته ، بصرف النظر عن قائله .

كما ترفعت تماماً عن إصدار الأحكام على الناس بالكفر أو الشرك ، ولا أذكر من هذه الألفاظ إلا ما ورد منها فى نص صحيح ، ثقة منى أن السابقين - عفا الله عنهم - سلكوا هذا المنهج فازدادت حدة الخلاف .
وقد جعلت هذا الكتاب فى فصول ثلاثة :

الفصل الأول : عن العقيدة فى الاسلام ، فتحدثت عن التوحيد بشعبه الثلاث وأثرت عدداً من القضايا الجديدة حول عقيدة العرب قبل الإسلام ، وظاهرة الحنيفية ، كما تحدثت حديثاً جديداً عن مفهوم الإسلام والإيمان .

وفى الفصل الثانى : عرضت عرضاً تحليلياً لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، وأنها تتضمن مرحلتين فى طريق العقيدة ، كما تعتمد على محورين أساسيين هما العبودية ، ولفظ الجلالة .

وأما الفصل الثالث والأخير فقد قصرته على الحديث عن أثر العقيدة فى الأخلاق والسلوك .

وأرجو أن أكون بهذا العمل قد فتحت الباب لأعمال جديدة فى مجال العقيدة ، تصحح مسار البحث والكتابة فيها ، بصورة تخدم المسلم

المعاصر ، فى وقت هو فى أمس الحاجة لما يصحح العقيدة فى هذا الوقت الذى انتشرت فيه آفات العقيدة وعللها .

كما آمل أن أكون قد أوفيت على الغاية أو دانيت ، ضارعاً إلى الله تعالى أن يتقبل منى هذا العمل ، وأن يكون مدخراً لى عنده ، يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأن يتجاوز سبحانه عن الهفوات التى لايخلو منها صنيع بشر ، فالكمال له وحده ، وحسبى أنى بذلت الجهد وما آلوت ، ومبلغ نفس عذرها مثل منجح .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . . .

دكتور السيد رزق الطويل
غرة المحرم ١٤٠٢ ﻫ
٢٩ من أكتوبر ١٩٨١ م

الفصل الأول

عقيدة الإسلام

١ ــ العقيدة فى الإسلام

٢ ــ محور عقيدة الإسلام

٣ ــ توحيد الربوبية

٤ ــ توحيد الألوهية

٥ ــ الحنيفية والحنفاء

٦ ــ منهج القرآن فى بناء العقيدة

٧ ــ توحيد الأسماء والصفات

٨ ــ الإيمان والإسلام ــ مفهوم جديد

١ – العقيدة فى الإسلام

معنى كلمة عقيدة :

تقول العرب عقد الحبل ، والبيع ، والعهد ، تعنى بهذا الارتباط الوثيق ، والالتزام القوى حسياً كما فى الأول ، أو معنوياً كما فى الثانى والثالث ، ويقولون : أعقدت البناء جعلت له عقوداً ، والتعاقد : التعاهد ، والمعاقد : المعاهد ، واليعقيد : عسل يعقد بالنار وأعقدت العنب إذا أغليته حتى غلظ .

ومن خلال هذا البيان اللغوى يستبين لنا أن لفظ العقيدة بمشتقاته المختلفة يدور حول الإحكام والتوثيق ، ومن هنا ساغ لنا إطلاقها على ربط القلب بفكر أو رأى معين يدور حوله ، ويذعن له ، ويتصرف بمقتضاه ، ويكون منطلقاً لسلوكه .

ومما يؤيد ما استنتجناه من خلال الاستعمال اللغوى ورود هذا اللفظ بمشتقاته فى القرآن الكريم على النحو الذى أشرنا إليه ، أعنى التوثيق والإحكام وإيجاد رابطة بين شيئين .

يقول الله تعالى : (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شىء شهيدا)[1] .

---

(١) النساء/ ٣٣ .

وماعقدت الأيمان هو ارتباط وثيق عن طريق التحالف بين مسلم ورجل أسلم على يديه وبين الرجل وعبده الذى أعتقه ، ولقوته يترتب عليه توارث[1] .

ويقول تعالى : (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان)[2] .

واليمين المنعقدة هي الحلف على شيء فى المستقبل يفعله أولايفعله ، ولتوثقها نرى فى عدم الالتزام بها كفارة ، حتى ولو كان عدم الالتزام ناشئاً عن سبب شرعي .

ويقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم)[3] والعقود ارتباط وثيق بين اثنين على أمر من أمور الحياة .

ويقول تعالى : (ولاتعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله)[4]

والمعنى لاتنووا عقد النكاح مع المتوفى عنها زوجها حتى تنتهى عدتها ، ولايجوز إلا مجرد التعريض بالخطبة .

ويقول تعالى : (إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح)[5]

---

(١) الكشاف / ط ص ٢٩٠ .
(٢) المائدة/ ٨٩ .
(٣) المائدة/ ١ .
(٤) البقرة/ ٢٣٥ .
(٥) البقرة/ ٢٣٧ .

ومعنى هذا أن المطلقة قبل الدخول لها نصف المهر إلا إذا تنازلت أو تنازل وليها الذى أبرم العقد بالنيابة عنها.

فنرى فى هاتين الآيتين التعبير بعقدة النكاح ، مراداً بها العقد ، بما فيه من توثق لايكاد يوجد فى غيره من العقود حتى إن الله تبارك وتعالى : سماه : الميثاق الغليظ إذ قال عز من قائل (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً)[1] .

وقال تعالى : (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى)[2] .

وعقدة اللسان : لكنة فيه تمسكه ، وتمنعه من الانطلاق فى التعبير .

قال تعالى : (ومن شر النفاثات فى العقد)[3] .

وهن السواحر ينفثن فى خيوط معقودة ، جزءاً من أجزاء عملية السحر ، أو كما قال الشيخ محمد عبده : هن النمامات اللاتى يعمان بالنميمة فيقطعن الروابط والصلات بين الأفراد والجماعات .

وهكذا يضفى الاستعمال القرآنى مزيداً من الوضوح على البيان اللغوى ويعطى للفظ أبعاداً جديدة ، نخلص منها بما يلى :

العقيدة تعنى الارتباط بين القلب البشرى أعنى العقل ، وفكرة أو رأى أو منهج معين ، وأن هذا الارتباط يتميز بالوثاقة ، والقوة ،

---

(١) النساء/ ٢١ .

(٢) سورة طه/ ٢٥ — ٢٧ .

(٣) سورة الفلق/ ٤ .

والإحكام ، كما يتسم بالثبات والاستمرار ، والاستقرار ، وهذه الإيماءات توحي بها كلمة عقيدة أكثر مما توحي بها كلمة عقد ، أو عقدة .

ولأجل هذا نرى عبارة (العروة الوثقى) لم تأت فى القرآن الكريم إلا مرتين وكلتاهما فى مجال التعبير عن العقيدة الصحيحة التى جاء بها الإسلام ، فيقول تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)[1] .

هكذا صورت الآية الارتباط الصحيح بالله بأنها استمساك بعروة محكمة ، وأنها بهذه الصورة لايتصور أن تضعف أو تحل . وقوله تعالى : (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى)[2] .

وإذا كان لفظ العقيدة فى لسان العرب ، وفى محكم التنزيل له هذه الأبعاد السامية ، فماذا ينبغى للانسان ؟ !

ينبغى للانسان أن يبذل أكبر الجهد ، فى تصحيح الاعتقاد ، وأن يكون موضوع اعتقاده أهلا لذلك ؛ إذ ستمنحه عقلك ، وسيكون محور تفكيرك ، ومنطلق سلوكك ، وملجأك وملاذك ، فمن لذلك غير الله الحق ، (رب السموات ، ورب الأرض ، رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[3] (أفمن يخلق

---

(١) البقرة / ٢٥٦ .
(٢) سورة لقمان / ٢٢ .
(٣) الجاثية / ٣٦ ، ٣٧ .

كمن لايخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم)[1]

٢ ـ محور العقيدة فى الإسلام

تدور العقيدة فى الإسلام حول محور واضح وصريح هو التوحيد . .

توحيد الله رباً بمعنى الإقرار بوحدانيته فى الفضل والإنعام والعطاء، وكل مظاهر التربية ، البارة ، المعطاءة التى تفهم من لفظ الربوبية .

وتوحيد الله تعالى إلهاً بمعنى إفراده بالعبادة ، فلا نتجه بأى مظهر من مظاهر العبودية لغيره .

وهذا الفهم الذى سبق إليه شيخ الإسلام ابن تيمية كان تحولا ذكياً بعلم التوحيد عن تيار الجدل الفلسفى العقيم المسمى بعلم الكلام إلى منحى آخر ، أو إلى منهج آخر ولابد من توافر الجانبين جميعاً لتصح العقيدة وليتحقق التوحيد السليم .

وقبل أن نفصل القول فى هذه القضية ، نريد أن نشير إلى حقيقة .

هى أن الله تبارك وتعالى منذ خلق البشر اصطفى لهم الدين ، وكان هذا الدين المصطفى هو الإسلام ، يتبين ذلك من آيتين ، أولاهما قوله تعالى فى شأن وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما إذ يقول تعالى (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن

---

(١) النحل/ ١٧ ، ١٨ .

إلا وأنتم مسلمون)[1] وثانيتهما فى شأن اكتمال رسالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، ووفائها بكل مطالب الدين الذى رضيه الله ، فيقول تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً)[2] .

ووراء هذه الحقيقة نتيجتان :

الأولى : أن الإسلام إسماً ومضموناً يعبر تعبيراً صادقاً عن كل جوانب الدين عقيدة وعبادة وسلوكاً .

الثانية : أن رسل الله جميعاً جاءوا بالإسلام ، ودعوا إليه ، وتمنوا من الله أن يموتوا عليه ، فلله تعالى دين واحد ، جاءت به رسالات متعددة ، ومن هنا كان من التعبيرات الخاطئة ، الشائعة على ألسنة الكاتبين والمتحدثين : عبارة الديانات السماوية .

وقد أكد القرآن النتيجة الثانية فى آيات شتى ، تبين صراحة أن الإسلام دين الرسل جميعاً .

فنوح عليه السلام بين لقومه أن رسالته هى الإسلام : قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين)[3] .

وإبراهيم عليه السلام كان مسلماً (إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين)[4] .

---

(١) البقرة/ ١٣٢ . (٢) المائدة/ ٣ .
(٣) يونس/ ٧٢ . (٤) البقرة/ ١٣١ .

وأبناء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وحفيده يعقوب ، كلهم رسل ورثوا الدعوة إلى الإسلام فيعقوب حين حضره الموت يسأل بنيه عن معبودهم بعده ، (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون)[1] .

ويوسف عليه السلام تمنى أن يموت مسلماً ، قال تعالى على لسان يوسف : (فاطر السموات والأرض أنت وليي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين)[2] .

وموسى عليه السلام كان يدعو إلى الإسلام (وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[3] .

وسحرة موسى عندما آمنوا طلبوا من الله الصبر والموت على الإسلام (وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)[4] .

وعرف فرعون عند الغرق أن موسى يدعو للاسلام فأسلم (فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين)[5] .

---

(١) البقرة / ١٣٣ وفى شأن قرى قوم لوط قال تعالى : (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) الذاريات و ٣٦ .

(٢) يوسف / ١٠١ .

(٣) يونس / ٨٤ .

(٤) الأعراف / ١٢٦ .

(٥) يونس / ٩٠ .

وسليمان عليه السلام دعا إلى الإسلام ، وسجل القرآن الكريم رسالته إلى ملكة سبأ التى يقول فيها (بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين)[1] .

وأسلمت الملكة بعد أن استبان لها أنه رسول يهدى لاملك يخرب فقالت : (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)[2]

ودعا عيسى عليه السلام إلى الإسلام ؛ إذ يقول تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون)[3] .

بهذه الشواهد المتعددة عرفنا أن رسالات الرسل جميعاً دعت البشرية إلى دين واحد هو الإسلام الذى يتحقق فى أكمل الصور ، بتوحيد الله رباً وإلهاً .

٣ — توحيد الربوبية

وهو الإيمان بوحدانية الخالق ، الرازق ، المنعم ، الذى أسبغ نعمه ظاهرة ، وباطنة وبه استحق — وحده — الحمد والثناء الجميل .

وهذا النوع من التوحيد يكاد يشمل الخلق جميعاً .

فهو فى غير البشر يبدو فى التزامها بالسنن ، وخضوعها لقوانين الله التى أقام عليها كونه فلا تتخلف .

---

(١) النمل / ٣١ .   (٢) النمل / ٤٤ .
(٣) المائدة/ ١١١ .

يقول تعالى فى شأن السماء والأرض : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين)[1]

وقال تعالى : (ويسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته)[2] .

وقال تعالى : (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً)[3] .

وقال تعالى : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال)[4] .

وكل واحد من بنى الإنسان على دين - أى دين - يعرف توحيد الربوبية ولا تبعده فطرته مهما انحرفت عن الإيمان بالخالق ، الرازق ، رب هذا الوجود ، ومدبر أمره .

يقول تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)[5] .

حتى الملحدون من بنى الإنسان الذين دفعهم بغيهم إلى إنكار وجود الله بتأثير الشهوات ومتع الدنيا ، وسلطان الترف ، فوقفت عقولهم عند قوانين المادة التى منحتهم متاع الدنيا وعجزت عن تجاوز ذلك إلى من وراء القوانين ، ومن واضعها ومسيرها ؟

---

(١) فصلت / ١١ .

(٢) الرعد / ١٣ .

(٣) الإسراء / ٤٤ .

(٤) الرعد / ١٥ .

(٥) الأعراف / ١٧٢ .

هؤلاء ــ برغم هذا كله ــ يغالطون الفطرة ، وفى قرارة أنفسهم ، وفى غفلة من العقل الواعى المضلل يقولون عند المحن : يارب ! ! لأن الربوبية توبية ، ومهما اشتد العقوق لا سبيل إلى جحودها .

٤ ــ توحيد الألوهية

وهذا هو الجانب الثانى الذى تكتمل به العقيدة الصحيحة .

ونعنى به إفراد الله تعالى بالعبودية ، فهو وحده المعبود بحق .

فإذا كان توحيد الربوبية يعنى لا شريك مع الله فى الخلق والرزق ، والإحياء والإماتة وغيرها وهذا أمر لا يكاد يعارض فيه أحد أو أقل مخلوق فإن توحيد الألوهية يعنى أنه لا شريك مع الله فى العبادة ، وهذا أمر يقع فى وزره الكثير من بنى الإنسان إما قصداً أو بتأول فاسد ، أو ادعاء حسن النية .

ورسالات الرسل جميعاً جاءت للتصدى لهذا الخطأ أو هذا الخطر ، وإنقاذ البشر من مغبتة الوخيمة ، وهذه هى الشواهد .

يقول تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله)[1] .

ويقول تعالى : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم إله غيره)[2] .

---

(١) هود/ ٢٦ .

(٢) هود/ ٥٠ .

ويقول تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[1] .

وقال تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[2] .

وبعد قصص هؤلاء الأنبياء قال تعالى فى شأن هذه الأمم التى ضلت طريق توحيد الألوهية فانتقم الله منهم (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ)[3] .

وتأتى آيات القرآن الكريم ، مؤكدة وحدانية المعبود ، ومنها على سبيل المثال :

(وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)[4] .

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد)[5] .

ويقول تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)[6] .

ويقول تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)[7] .

---

(١) هود/ ٦١ .

(٢) هود/ ٨٤ .

(٣) هود/ ١٠١ .

(٤) البقرة/ ١٦٣ .

(٥) سورة الإخلاص .

(٦) النساء/ ٣٦ .

(٧) الإسراء/ ٢٣ .

وفى خطاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم يؤكد رب العالمين أن توحيد الربوبية لا تسامح فيه ، ولا يستقيم دين فى غيابه ، ولا عفو عن المخطىء فيه ولو كان رسولا : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين)[1] .

وفى أم الكتاب يقول تعالى ، معلماً إيانا جوهر التوحيد السليم : (إياك نعبد وإياك نستعين)[2] .

مشركو العرب . . . كيف كان شركهم ؟
أو ما ملامح الجاهلية فى عقيدتهم ؟

هم كما يؤكد القرآن ما أخطأوا فى توحيد الربوبية ، بمعنى أنهم كانوا مؤمنين بالله ربا منعما ، لكن فاتهم تماماً توحيد الألوهية أو توحيد العبادة .

لقد وصف القرآن الكريم عقيدتهم تلك فى آيات كثيرة .

يقول الله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)[3] .

فهم إذن يعرفون الله رباً بأسمائه الحسنى .

---

(١) الزمر / ٦٥ .
(٢) الفاتحة / ٥ .
(٣) الزخرف / ٩ .

ويقول تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون)[1] .

ويتعدد هذا الحوار مع مشركي العرب ، حيث يستبين لنا منه إيمانهم بالربوبية وأمامنا هذا الحوار المعبر من سورة المؤمنون : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ، ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون) ثم تسير الآيات من سورة « المؤمنون » ترد كل انحراف عن توحيد العبادة تورط فيه مشركو العرب أو غيرهم ، فيقول تعالى : (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[2] .

وهنا تساؤل يفرض نفسه على المقام .

من أى الوجوه كان شرك هؤلاء القوم ؟ ولماذا سمى القرآن الكريم قريشاً وغيرهم ـ من قبائل العرب على أرض شبه الجزيرة ـ مشركين ؟ !

---

(١) يونس/ ٣١ ، ٣٢ .

(٢) المؤمنون/ ٨٤ - ٩١ .

وتأتى الإجابة صريحة فى القرآن الكريم .

يقول تبارك وتعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار)[1] .

ويقول تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون)[2] .

لم تأت رسالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام لتعلم هؤلاء الناس الإيمان فقد كانوا على علم به ، وإنما جاءت لتعلمهم الإخلاص أعنى توحيد العبادة .

أما علمهم بالإيمان فقد سماهم القرآن الكريم مؤمنين عندما قال سبحانه ، (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)[3] بل إنهم كانوا يؤكدون فى مجالسهم أنهم لو جاءتهم رسالة لكانوا أهدى من هذه الأمة التى تزعم لنفسها الهداية والاصطفاء وهم بنو إسرائيل يقول جل شأنه :

---

(١) الزمر / ٣ .

(٢) يونس / ١٨ .

(٣) آل عمران / ١٦٤ .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً فى الأرض)[1]

ومن هنا جاء فى حوار القرآن الكريم للمشركين ، رداً على ادعاءاتهم ، وحتى لا تقوم لهم حجة فى بقائهم على شرك العبودية ، فيقول تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة)[2]

ويتحدث القرآن الكريم عما صرف القوم عن الهداية إلى توحيد الألوهية وأن مرجع ذلك الحفاظ على المكانة ، وهذه قضية سنفصلها عند الحديث عن كلمة التوحيد ، فيقول تعالى : (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا)[3] .

نستنتج من هذه النصوص القرآنية عدة نتائج :

أولها : تسمية القرآن الكريم لهم بالمؤمنين مما يدل على علمهم بالإيمان .

ثانيها : استشرافهم للهداية إذا جاءهم نذير حتى يفوقوا غيرهم فى مجال العلم بالله .

---

(١) فاطر / ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) الأنعام / ١٥٥ – ١٥٧ .
(٣) القصص / ٥٧ .

ثالثها : المنافسة على الهداية مفروسة فيهم ، وأن الله لم يترك لهم عذراً حين بعث فيهم ومنهم محمدا عليه الصلاة والسلام .

رابعها : كانوا يعرفون أن الهدى مع النبي ، لكنهم لم يتبعوه استكباراً .

وقبل أن نترك قضية الإيمان عند مشركى العرب وعلمهم به ، نشير إلى ظاهرة هامة تتصل بهذا الحديث .

٥ ــ الحنيفية والحنفاء

كان فى العرب فى جاهليتهم ، وقبل بزوغ فجر الرسالة المحمدية من يسمون بالمتحنفين وهم طائفة تمسكوا بميراث الحنيفية السمحة عن إبراهيم ، وبعدوا تماماً عن شرك العبودية وتعظيم الأصنام ومنهم قس بن ساعدة وزيد بن نفيل ، وكان أولهما خطيباً مشهوراً فى الجاهلية ، تلتف حوله جموع القبائل فى عكاظ ، واستمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وهو يخطب خطبته المشهورة والتى يقول فيها : « إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبراً ، يقسم قس بالله قسما لا حنث فيه أن لله ديناً هو أزكى من دينكم . . . » فقال صلى الله عليه وسلم ــ وكان ذلك قبل بعثته ــ « يبعث قس أمة وحده » ومن أقوال زيد بن نفيل بن عبد العزى .

إن تقـوى ربنـا خـير نفـل   وباذن الله ريـــثى والعجـل
أحمـد الله ، ولا نـــد لـــه   بيـده الخير ، ما شاء فعـــل
من هداه سبل الخير اهتـدى   ناعم البال ، ومن شاء أضـل

والجمهرة من قبائل العرب كانت برغم شركها مستمسكة بالحنيفية تعتز بها ، وفيهم من كان يحمل اسم عبد الله ، والشاعر زهير بن أبي سلمى يقول في معلقته :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر ، فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

ومظاهر التحنف واضحة في كلام الشاعر ، متمثلة في الإيمان بعلم الله بخفايا الصدور ، وباليوم الآخر ، وبالحساب .

بل هناك ما هو أكثر دلالة على تحنفهم وهو ما يرويه ابن هشام في السيرة من خطبة أبي طالب في زواج ابن أخيه محمد بن عبد الله من خديجة بنت خويلد ، فيقول في أولها : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضئ أصل معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا ساسة حرمه ، وسدنة بيته .

٦ ـ منهج القرآن الكريم في بناء العقيدة وتأصيلها

قلنا إن العقيدة تتكامل ، وتصح ، وتستقيم بتوافر هذين الجانبين : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وأن أولهما قد يوجد بدون الثاني ومن هنا كانت الآفة التي تورطت فيها أمم البشر ومن أجلها جاءتهم الرسالات المتعاقبة كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[1] وأن ثانيهما لا يتحقق إلا مع الأول ، ولا يتصور وجوده بدونه .

---

(١) الأنبياء / ٢٥ .

وعلى ضوء هذا تعرض المنهج القرآني فى تأصيل عقيدة التوحيد .

إنه يتحدث حديثاً مفصلا عن توحيد الربوبية بحيث يعرض صوراً شتى من مظاهر الخلق والإنعام تشد العقول إلى النظر السليم ، والفكر القويم ، ليتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، وما فيهما من آثار قدرة الله ، وفى النفس الإنسانية ، وما فيها من إبداع وإحكام ، وفى سنن الله فى الكون العظيم التى بين القرآن الكريم أنها الطريق الأهدى إلى الحق والأرشد إلى المعرفة الصحيحة . . . ثم يختم القرآن الكريم الحديث عن مظاهر الربوبية فى الآيات بتأكيد وحدانية العبادة التى هى نتيجة حتمية – فى منهج العقول الرشيدة – لتوحيد الربوبية .

وسنعرض أمثلة من القرآن الكريم توضح حقيقة هذا المنهج وأبعاده فى تأصيل توحيد الألوهية وكل عقائد الإسلام بصفة عامة ، وسنتبع كل مثال بتوضيح شامل لكل جوانبه .

الشاهد الأول :

يقول الله تعالى فى سورة النحل (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل منَ السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم

به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، و النجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذى سخر البحر ، لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون)[1] .

نظرة فى هذه الآيات :

تحدثت عن مظاهر كثيرة ومتعددة للربوبية .

تحدثت الآيات حديثاً مجملا عن خلق السماء والأرض ، وعن خلق الإنسان ، وخصومته لربه .

وتحدثت عن الأنعام ، وما فيها من الدفء والمنافع ، كالمأكل والملبس ، وحمل الأثقال ، وتقريب المسافات ، والتمتع بجمالها رائحة وسارحة ، وقدم الرواح على السروح ؛ لأن الإحساس بالجمال فى ذلك الوقت أعظم وأكبر .

---

(١) سورة النحل من ٣ — ٢٢ .

ثم تحدثت عن حيوانات الركوب والزينة .

ثم فصلت القول فى نعم الله فى الأرض وفى السماء من زروع وأشجار ، وثمار ونباتات مختلفاً ألوانها ، وكذا الشمس والقمر والنجوم .

وتحدثت عن البحر واللحم الطرى ، والمعادن الثمينة فى أعماقه ، والفلك تجرى فيه .

وفى ختام الآيات تحريك للانسان إلى التفكر والتعقل ، والتذكر باعتبارها وسائل فعالة فى هداية الإنسان إلى الحق .

ثم تخلص الآيات من توحيد الربوبية إلى تأكيد العبودية لله الواحد ، ويأتى هذا التساؤل ، محدداً معالم الإجابة الهادية إلى الحق والرشاد . (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ وتتقرر هذه الحقيقة التى لا ريب فيها : (إلهكم إله واحد) .

الشاهد الثانى :

يقول الله تعالى فى سورة النمل (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آالله خير أم ما يشركون أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا ، به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون .

أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله قليلا ما تذكرون ، أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون)[1] .

نظرة فى الآيات :

تقدم هذه الآيات منهجاً آخر فى الربط بين توحيد الربوبية والألوهية ، قائماً على الحوار ، والموازنة لتتيح للعقول السليمة فرصة للتعرف على الحق ، والعبودية لله وحده .

ومحورها : ءآلله خير أمّا يشركون ؟

ثم تسوق مظاهر من الربوبية أصيلة ، وعميقة ، ومؤثرة ، ومع كل أثر يساق، أو دلالة تقدم ـ سؤال ـ : أإله مع الله ؟ ولا يسع المجيب الواعى ، البعيد عن الأهواء إلا أن يقول : لا إله إلا الله .

وفى ختام الآيات نجد أوصافاً للمشركين تتناسب مع جحودهم وغفلتهم فوصفهم الله بالعدول عن الحق وعدم العلم ، وأنهم لا يتذكرون ، وأن الله منزه عن شركهم .

الشاهد الثالث :

يقول الله تعالى فى سورة لقمان : (خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل

---

(١) سورة النمل/ ٥٩ - ٦٣ .

دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين)[1]

نظرة فى الآيتين .

تحدثت أولاهما فى إيجاز عن مظاهر شتى من الربوبية ، واتجهت الثانية إلى المشركين تفحمهم بعجز آلهتهم التى أشركوهم مع الله فى عبوديته ، فكانوا بهذا الظلم على ضلال مبين .

ولم يكن هذا المنهج القرآنى فى تأصيل العقيدة مقصوراً على تأكيد توحيد الألوهية عن طريق الربط بتوحيد الربوبية ، وإنما اتبع ذلك فيما يتصل بعقيدة التوحيد من عقائد أخرى .

ومن ذلك عقيدة البعث .

يقول الله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة ؛ وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)[2] .

---

(١) لقمان/ ١٠ ، ١١ .   (٢) الحج/ ٥ ، ٦ ، ٧ .

فهنا تسير الآيات على المنهج نفسه .

ذكرت الإنسان بمراحل خلقه ، باعتبارها مظاهر للقدرة .

وقدمت قصة الحبة ، ينزل عليها الماء ، فتهتز الأرض لها فتنبت الحبة ، وتنبت ، ويجمل وجه الأرض بكل زوج بهيج .

إن قصة الحبة ، هي قصة البعث بعد الموت .

وتختم الآيات الثلاث بحقائق خمس :

الله هو الحق ، وهو يحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور

وفي كل موقف عرض القرآن الكريم فيه لقضية البعث ، اتبع الأسلوب نفسه : الزرع والماء ، وخروج الحبة عوداً أخضر يشق الأرض وينمو ويربو ، ثم تختم الآية بما يفيد أن البعث والنشور كذلك .

ففي سورة « ق » يقول تعالى : (ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج)[1] .

ويقول تعالى : (والله الذي أرسل الرياح ، فتثير سحاباً ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور)[2] .

فالتذكير بالربوبية في هذا الموطن كان هو المنهج الذي أثبت به القرآن الكريم أيضاً عقيدة البعث .

---

(١) سورة ق/ ٩ – ١١ .

(٢) فاطر / ٩ .

٧ ــ توحيد الأسماء والصفات

من حقائق العقيدة فى الإسلام ، وهى تقوم على مبدأ التوحيد ، أن توحيد الله غير مقصور على جانب الربوبية ، وجانب الألوهية على الذى فصلناه فيما مضى وإنما يطالب المؤمن ــ لتتم عقيدة التوحيد فى وجدانه ــ بتوحيد الأسماء والصفات ، فالله تبارك وتعالى ليس له ند فى ربوبيته ، ولا فى ألوهيته ، وليس له نظير فى أسمائه وصفاته فهو فيما سمى به نفسه ، ووصف فوق مايخطر ببال البشر ، وأسمى من تصوراتهم .

فنفى الند والنظير شامل لهذه الجوانب الثلاثة .

فالله تبارك وتعالى فى سورة الإخلاص ، التى تتحدث عن الوحدانية بأوجز عبارة ، وأشملها ، وأدقها يأمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يبلغ الناس هذه الحقائق :

١ ــ وحدانية الذات .

٢ ــ وحدانية العبادة وأنه وحده المقصود فى الحاجات .

٣ ــ منزه عن ضعف عاطفة الأبوة التى تدفع إلى المجاملة والمحاباة

٤ ــ وعن ضعف عاطفة البنوة الداعية إلى الشعور بالحاجة إلى الغير .

٥ ــ وأنه لا يوجد له مثيل .

هذه الحقائق الخمس جاءت فى قوله تعالى : (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) .

ووصف الله نفسه فى سورة الشورى فقال : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1] .

ومن آيات الصفات قوله تعالى : (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم)[2] .

فكل ما هو أكمل وأحسن من الأسماء والصفات هو من خصائص الذات الإلهية .

وقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه بصفات ، يتصف بها البشر ، من ذلك قوله جل شأنه : (الرحمن على العرش استوى)[3] (ولتصنع على عينى)[4] (كل شيء هالك إلا وجهه)[5] (يد الله فوق أيديهم[6]) وجاء فى الحديث وصف لله بالنزول ، والقدم ، وأنه يضع قدمه فى النار يوم القيامة ويقول لها « قط قط » وغيرها كثير .

وعندما كان المسلمون يتلقون دينهم بعقل راشد ، ويسر لا تكلف معه كانوا يستمعون لهذه الصفات تأتى فى كتاب الله ، أو فى كلام

---

(١) الشورى / ١١ . (٢) الحشر / ٢٢ - ٢٤ .
(٣) طه / ٥ . (٤) طه / ٣٩ .
(٥) القصص / ٨٨ . (٦) الفتح / ١٠ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يسمح لهم إيمانهم بمناقشة صفة من هذه الصفات مناقشة جدلية ، وما وجدت عقولهم الهادية المهدية حاجة إلى البحث وراءها بالسؤال عن الكيفية : كيف استوى ؟ كيف يكون له عرش ؟ كيف الكرسى ؟ بل كانت تأخذ ما توحي به هذه الصفات من عظمة وجلال ، وتصف الله تبارك وتعالى بما وصف به نفسه .

ولم يكن أمام العقل الإسلامى ، وهو يعيش جهاداً مجيداً ، وتنفتح له الأرض إقليماً بعد إقليم فرصة لأن يخلد إلى جدل ، أو يستنيم إلى مراء .

وعندما بدأ الفكر اليونانى يغزو العقل الإسلامى ، وله فى مجاهل الفلسفة الإلهية تجارب فاشلة على يد الفلاسفة الكبار مثل سقراط وأرسطو وأفلاطون ، ولم يجد العقل البشرى ما يقنعه فأخذ يسير على درب الجدل ولم يصل إلى شيء — خدع بعض المسلمين بهذا الزخرف وفتنوا بهذه الفلسفة ، وظنوا أن فيها حلولا لمشاكل الفكر الإنسانى وأنها تصلح دعما للفكر الإسلامى فى جوانب العقيدة المختلفة وبخاصة الجانب الإلهى فانتهى أمر العقيدة إلى التعقيد .

وفى هذا الوقت كانت حركة الفتوح قد خفت ، وظهر على صعيد المجتمع المسلم فرق شتى بدأت سياسية ، وانتهت إلى مذاهب فكرية .

وكان من نتيجة هذا وذاك أن ركب العقل المسلم متن الشطط ، وأسرف على نفسه وبدأ يتحمل عبء الجدل فى قضايا ، أراح القدماء - فى تعقل راشد وإيمان قوى - أنفسهم منها .

وبدأ البحث فى المتشابه من الأسماء والصفات بالتماس تفسيرات لها تحمل معنى التنزيه بينما أصر آخرون على التفويض المطلق ، حتى أمعن المعتزلة فى الأمر وقالوا إن صفات الله غير قديمة حتى لا يتعدد القدماء وهذا مبالغة منهم فى التنزيه ، وفى توحيد معنى التوحيد .

وتحول الأمر إلى جدل ثم إلى اتهام ، ووصف المؤولون المفوضين بالتشبيه والتجسيم ووصف المفوضون المؤولين بالتعطيل ، وظهرت فى ميدان المجتمع فرق وصفت بالمشبهة وبالمعطلة ، وغطى غبار الجدل على الحق فى هذه القضية . والأفكار الفلسفية تمد هؤلاء وأولئك بحجج تزيد الجدل استعاراً .

إنها قضية فراغ ذهنى وفكرى شغلت فيما لا يفيد ولا يجدى .

مع أن تاريخ التفكير الإسلامى يحكى لنا قصة الرجل الذى سأل الإمام مالكا رضى الله عنه عن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنك رجل سوء .

فهنا نرى الإمام مالكا بذكاء خارق ، وفكر راشد يشير إلى حقيقتين :

أولاهما : أن السؤال عن كيفية الصفات بدعة ، وهو على حق ؛ لأنه لم يحدث أن أحداً من صحابة النبي سأله فى مثل هذا . وكذا الأمر فى عهد الراشدين من خلفائه .

ثانيتهما : أن البحث فى هذه القضايا تحركه دوافع غير سليمة ، ويفتح أمام الفكر الإسلامى أبواباً أولى بها أن تسد ، لأنه فى غنى عنها ويكفيه ما توحى به من معانى الجلال والكمال .

إن هذه المشكلة ظلت مفروضة على التفكير الإسلامى حتى عصرنا الحاضر ، وذلك بحكم الركود والجمود ، والتعصب والتقليد ، والكتب المفروضة على الساحة العلمية فى المجتمع الإسلامى المعاصر تلزمه بأن يعيش مع هذا النوع من التفكير ، ويختلف أفراده ، كما اختلف سابقوهم حتى يكون منهم مشبهة ومعطلة . وكتب علم الكلام تغرقنا فى بحر لا ساحل له .

مع أن القضية هينة والخطب يسير .

لم يطالبنا الله بالتماس تفسيرات لصفاته بل قال سبحانه : (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب) .

فأحرى بنا أن نتبع منهج الراسخين فى العلم وأولى الألباب بالإيمان بهذه الصفات كما جاءت ـــ مفوضين الأمر فى معناها إلى اللهمستحضرين فى يقيننا أن هذه الصفات غير صفات البشر ، وأنه سبحانه كما قال عن نفسه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

وبالإثبات خرجنا عن دائرة التعطيل ، وبنفى المثلية والمشابهة خرجنا عن دائرة التشبيه والتزمنا بالحق والحق وحده . ثم وفرنا على أنفسنا جهداً عقلياً عظيماً يمكن أن يكون خلاقاً ومبدعاً لو وجهناه إلى قضايا الفقه والتشريع .

٨ – الإيمان والإسلام

مفهوم جديد . . وعلاقة جديدة

تحدث علماء الكلام وغيرهم من الكاتبين فى العقيدة الإسلامية فى إطار المنهج المتأثر بالفكر الإغريقى عن الإسلام والإيمان ، حديثاً يفهم منه أن الإيمان هو المناط على أساس أنه يعنى الجوهر واللب ؛ لأن معناه الإذعان القلبى ، والتصديق الباطنى ، وأن الإسلام يعنى الشكل والمظهر ، وبناء على هذا فالوصف بالإيمان أجل شأنا ، وأعظم قدراً من الوصف بالإسلام .

يقول الشيخ عبد الجليل عيسى : موجب اللغة أن الإسلام أعم ، والإيمان أخص ، فكل تصديق تسليم ولا عكس ، وهذا فهم صحيح من الناحية اللغوية .

ثم يتناول العلاقة بينهما حسب الاصطلاح الشرعى ، فيذكر أقوال العلماء والمتكلمين حسب تصورهم لها ، فيقول : ومعناهما بحسب إطلاق الشرع ، تارة يطلقان على معنى واحد فيكونان مترادفين ويطلق كل منهما على معنى يباين الآخر ، فيكونان متباينين ، وتارة

يطلق أحدهما على معنى ، ويطلق الآخر على ما يشمل هذا المعنى وغيره ، فيكون بينهما العموم والخصوص المطلق[1] .

وهذه صورة للفهم المتأثر بالفكر الإغريقى ، كما قلت ، وهو فهم غير دقيق .

ذلك لأن الإسلام علم على دين الله ، يندرج تحته كل ما جاء فيه من أبواب الهداية ، والإيمان بالله وحده باب منها ، ولن تكون له قيمة أو مكانة إلا فى إطاره ، وهو بدونه ضلال .

والاستعمال القرآنى للفظين يؤكد هذا الاستنتاج ، يقول ربنا تبارك وتعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)[2] .

والمتتبع للفظ الإسلام ومشتقاته فى القرآن الكريم على النحو الذى أسلفناه يتأكد له أنه يعنى الباطن ، ممثلا فى عبودية خالصة لله ، والظاهر ممثلا فى شعائر ومناسك ، يتقرب بها الإنسان إلى الله بجانب الالتزام التام بمنهج الرحمن فى علاقة الإنسان بالحياة والأحياء .

فالله تبارك وتعالى يقول فى سورة الزمرمن الآية ٥٤ : (وأنيبوا إلى ربكم ، وأسلموا له) .

وعندما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتبه المتعددة يدعو ملوك العالم ، وذوى الشأن فيه إلى الإسلام ، انحصرت دعوته فى

---

(١) صفوة صحيح البخارى – الجزء الأول – كتاب الإيمان .

(٢) سورة الذاريات/ ٢٥ ، ٢٦ .

هذه العبارة : « أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين » ، فإذا أسلم الواحد منهم نفسه لله ، فقد سلم ، ولا يراد منه أكثر من هذا .

والاستعمال اللغوى ، كما تشهد به معاجم اللغة وقواميسها لايساند ما اتجه إليه علماء الكلام ؛ إذ « الإيمان » على ضوء الاستعمال اللغوى يعد جزءاً من الإسلام .

ولعل الذى زكى لديهم هذا الفهم هذه الآية التى جاءت فى سورة الحجرات ، وهى قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) وذلك حيث ذكر الإسلام مقابلا للإيمان ؛ إذ أن هؤلاء الأعراب منافقون لهم ظواهر إسلامية وليس لهم يقين صادق ، فمن حقهم أن يرفعوا شعار الإسلام ، وليس من حقهم أن يرفعوا شعار الإيمان ! !

ولهم فى هذا المجال قاعدة يرددونها ، ومؤداها : أن الإيمان والإسلام فى القرآن إذا ذكر أحدهما بدون الآخر ، شمل الاثنين جميعاً ، وإذا ذكرا معاً فى آية واحدة اختلف مفهومهما ، وأصبح الإسلام يعنى الأعمال الظاهرة ، والإيمان يعنى الأعمال الباطنة[1] .

والجزء الأول من هذه القاعدة صحيح .

فإذا تحدث القرآن عن الإيمان الصادق ، الذى يحقق لصاحبه

---

(١) يرى هؤلاء أن الإسلام فى الآية مراد به استسلام الجوارح فحسب فهو مقصور على جانب واحد من جوانبه المتعددة ، ولكن أمر الله لهم برفع شعار الإسلام إنما يعنى الإسلام الشامل لا الجزئى .

القبول والرضا ويمنحه المثوبة ، فهو بلاشك لاينفصل عن الإسلام .

وإذا تحدث عن الإسلام وحده فبلا ريب يعنى العقيدة الخالصة لله ، التى تدفع صاحبها إلى القول الطيب والعمل الصالح .

لكن الجزء الثانى من القضية هو الذى يتطلب مناقشته !!

فذكر لفظ الإيمان والإسلام فى آية واحدة لا يعنى اختلافا فى مفهوميهما ، ولا يعنى أن الإسلام مقصور على العمل الظاهرى .

ولنرجع إلى آية الحجرات لنعرضها العرض الذى نراه صحيحاً .

فهؤلاء الأعراب الذين نافقوا أرادوا الإعلان عن انتمائهم لمجتمع المسلمين الذى يقوده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفعوا شعار الإيمان ، وهو تصرف غير سديد لأن شعار هذا المجتمع هو الإسلام الذى يعد الإيمان جزءاً منه . والذى يريد الانتساب للكل لا يرفع شعاراً معبراً عن الجزء وحده ، على أن هذا الجزء الذى رفعوا شعاره لم يصل إليه هؤلاء الأعراب بعد ، ومن المتوقع بحكم التعبير بلفظ « لما » أن يصلوا إليه ، وكان الأولى لهم أن يرفعوا الشعار الشامل ، الذى يحقق لهم الفوز والفلاح ، وهو يتمثل فى طاعة الله ورسوله التى هى الإطار العام للالتزام بالمنهج الإسلامى .

وكأن الله تعالى ينصح هؤلاء الأعراب الذين يتخبطون فى القول بعد التخبط فى السلوك والاعتقاد بأن يلتزموا بالإسلام كاملا غير منقوص .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن ينبه أصحابه إلى التمسك بشعار الإسلام وحده ، دون أى شعار آخر ، حتى ولو كان هذا الشعار هو الإيمان .

من ذلك ما رواه البخارى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، أنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام يوزع الصدقات ، ويعطى رجالا ، لا يراهم سعد مستحقين لها ؛ لعدم صدق إسلامهم ، ويترك رجلا — يراه سعد أحق بها ، فيقول: يارسول الله ، مالك عن فلان ؟! إنى لأراه مؤمناً ، فيقول له النبى عليه الصلاة والسلام : «أو مسلماً» !! ويواصل النبى صلى الله عليه وسلم عمله فى توزيع الصدقات ، ويظل سعد يراجعه والنبى عليه الصلاة والسلام يرد عليه قوله ، ويقول : «أو مسلماً» ، ثم يقول : «يا سعد ، إنى لأعطى الرجل ، وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله فى النار »[1] .

وهنا أقول : إن النبى عليه الصلاة والسلام عندما يقول لسعد : « أو مسلما » بمعنى قل : إنه مسلم ، ولا تقل : إنه مؤمن ، على أساس أن الإسلام هو الشعار الذى ينبغى أن يعلن وأن يرفع .

وليس المقصد من هذا أن الإيمان من عمل القلب ، فلا يعلم به أحد ، بينما الإسلام أمره يسير ، لأنه أعمال ظاهرية نراها ويمكن أن نحكم على صاحبه بمقتضاها ؛ إذ يترتب على هذا التصور أمر

---

(١) كأن سعداً كان يتصور أن الأحق بالصدقة من هو أصح إسلاما ، ولأجل هذا يبين له النبى عليه الصلاة والسلام أن الصدقات فى الإسلام قد تكون منهجاً لمعالجة القلوب المريضة والمرتابة ، إنقاذاً لها من الريبة والشك .

خطير ، هو أن المنافق يمكن أن يسمى «مسلماً» مع أنه لا إسلام له ، لأن الإسلام يعنى إسلام القلب ، والمنافق لا يملكه ؛ ولأن المسلم كما عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم — من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمنافقون كثيراً ما تمتد أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وأما كون المنافق مستسلماً فى ظاهره لدولة الإسلام التى أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذلك لا يسوغ لنا أن نقول : إنه مسلم ، ولكن نقول : إنه منافق أو مستسلم .

وعندما عالج الرسول عليه الصلاة والسلام قضيتهم بمنهج العفو الذى هو خلقه ، فى موقف يجب أن ينكشف فيه أمرهم ، وتحسم قضيتهم فتقدم للصلاة على كبير المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى . نهاه الله تبارك وتعالى عن مثل هذا وقال : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون)[1] .

ومن هنا نصل إلى نتيجة :

اسم الإسلام أولى وأعظم ، وأدق وأحكم ، ويؤيد ذلك فى تقديرى شواهد عديدة :

أولها : اختيار اسم الإسلام علما على الدين الحق الذى اختاره الله لعباده ، وأرسل به رسله ، وقد فصلنا — فيما مضى — جوانب هذه الحقيقة .

---

(١) التوبة : ٨٤ .

ثانيها : الإيمان الصحيح الصادق يمثل جزءاً من الإسلام ، وهو جانب العقيدة ، فلفظ الإسلام يوحى بالإيمان ، ويعبر تعبيرا واضحاً عن العقيدة ؛ إذ معنى أن يسلم الإنسان وجهه لله أن تكون عبوديته خالصة له وحده[1] .

ودخول الجانب القلبي وهو العقيدة فى مفهوم الإسلام ، يؤيده قول الرسول عليه الصلاة والسلام: « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا »[2] .

وكذلك ما رواه أحمد رضى الله عنه . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ فقال :«الإسلام ، فقيل أى الإسلام أفضل ؟ فقال : الإيمان » .

فالإقرار بالعبودية لله وحده ، وبالرسالة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو مناط الإيمان السديد المقبول عند الله تعالى يعد الركن الأول فى بناء الإسلام .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان بأن تؤمن بالله وملائكته

---

(١) وقد حملت الفرق الإسلامية نفسها منذ قديم عبئاً كبيراً فى مناقشة قضايا فرضية مثل : ما حكم من اعتقد بقلبه ، وآمن وصدق ، ولكنه لم يعمل عملا صالحاً ، أو ارتكب كبيرة مثلا / ويدور بينهم خلاف واسع ، ولو أحسنوا التفكير لاستراحوا به / إذ لا يمكن لصادق العقيدة أن يتخلى عن منهج تفرضه عليه عقيدته .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الإيمان من حديث ابن عمر .

وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان على هذا النحو لا يفيد صاحبه ما لم يكن معه إقرار ، واتجاه بالعبودية لله وحده بأن تكون هـذه العقيدة فى دائرة الإسلام الحق .

ثالثها : يمكن للإيمان أن يداخله الشرك ، ويمكن أن يكون الإنسان مؤمناً ، وفى الوقت نفسه على ظاهرة من ظواهر الشرك .

وما أكثر المؤمنين !! وما أقل العابدين المخلصين الذين سماهم ربنا تبارك وتعالى مسلمين !!

يقول الله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[1] (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[2] .

ولم يرد مثل هذا التعبير فى القرآن الكريم بالنسبة للفظ الإسلام .

بل نجد الإسلام معه الفوز ، والفلاح ، والنجاة .

يقول الله تعالى : (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور)[3] ويقول تعالى : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[4] .

فى كلتا الآيتين ارتبط الفلاح والفوز بإسلام الوجه لله مع إحسان.

---

(١) سورة يوسف / ١٠٦ .

(٢) سورة يوسف / ١٠٣ .

(٣) سورة لقمان / ٢٢ .

(٤) سورة البقرة / ١١٢ .

وجاء فى سورة الأنعام ما يفيد احتمال تسرب الشرك لعقيدة المؤمن، إذ يقول تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[1] والظلم هنا كما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشرك[2] . ومفهوم الآية يفيد أن هناك من يؤمن ، ويقع فى الظلم بتوجيه العبادة لغير الله ، ومثل هذا لا يوصله إيمانه إلى الأمن .

رابعاً : الإيمان يدعيه كل الناس ، محقين أو مبطلين ، لكن الإسلام لا يرفع شعاره إلا المحبون له ، الراغبون فيه ، ومهما خفت حماستهم له ، وضعف ارتباطهم به ، وتهافتوا فى تمسكهم بمنهجه ، هم حريصون على شعاره ، وعلى الاستمساك به ، ويمكن بعد فترات الضعف أن يتيسر للمسلمين من يبعث فيهم الحماسة ، ويعزز الصلة ، ويعيد الرابطة القوية ، فيهتدون بهديه ، ويعودون به أعزاء أقوياء .

لكن دعوى الإيمان أى إيمان عقيدة بلا رابط ، وحماسة بلا منهج ، وعاطفة بلا ميزان ، ودين بلا هداية .

---

(١) سورة الأنعام / ٥٢ .

(٢) فى الاستعمال القرآنى يأتى الظلم بمعنى الشرك فى أكثر المواضع ، وقد قال تعالى فى سورة لقمان : (إن الشرك لظلم عظيم) وقد وصف الله المشركين بالظلم فى سورة البقرة ، إذ قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب) .

فقد ادعاه المنافقون .

وادعته طوائف شتى ، وفرق متناحرة ألبست الإسلام ثياب أهوائها ، فأوقعت بايمانها المدعى مجتمع المسلمين فى سعير التمزق والشقاق .

ويدعيه الماديون ، والوجوديون ، والماركسيون ؛ لأن هؤلاء جميعاً ، كل منهم له إله يؤمن به هو الطبيعة ، أو الرياضة ، أو التفسير المادى للتاريخ ، وحتمية الصراع بين الطبقات .

كل هؤلاء يدعون الإيمان ، ويتحدثون عن فضائله ، ويدعون الاستمساك به .

وهناك من يدعو إليه ليجمع بين متناقضات الطوائف التى ضلت طريق الإسلام ، الدين الذى اختاره الله وارتضاه .

وكان مشركو العرب قبل الإسلام يملكون الإيمان بالله ، ولا يملكون الإسلام ، وقد فصلنا القول فى حديثهم .

وكل إيمان فى غيبة الإسلام وهم وضلال .

ماذا ترى فى إيمان يفقد معه الإنسان عقله ، فيغرق فى بحار الجهل والخرافة ؟ !

إن هؤلاء الذين يجرون وراء الدجالين والمشعوذين ملكوا إيماناً ضالا ، ألغوا معه عقلهم ورشادهم .

لقد انطلقت فى إطار هذا الإيمان الزائف دعوى هادمه : لو اعتقد احدكم فى حجر لنفعه .

ويراد بها - بلا ريب - تقويض بناء الإسلام الذى أعطانا التصور الصحيح للوجود ، وخالقه العظيم ، ورسم لنا المنهج السديد للعلاقات المثلى فى الحياة ، وبين الأحياء .

وماذا ترى فى إيمان يفقد معه الإنسان إرادته ؟ !

ذكرت لنا الصحف نبأ مثيراً مؤداه : أنه وقعت فى مستعمرة « جورج تاون » التابعة لولاية « جويانا » بأمريكا اللاتينية أكبر حركة انتحار جماعية فى التاريخ وفى الحقيقة أنها مذبحة لأنهم انتحروا تحت ضغط مادى ونفسى .

يقيم فى هذه المستعمرة طائفة دينية متطرفة يسمون أنفسهم « معبد الشعب » وزعيمهم قس ، اسمه الأب : جيم جونز[1] .

يبدو أن الحكومة الأمريكية أرسلت لجنة لتقصى الحقائق فى هذه المستعمرة وكشفت أموراً مريبة ، فقتلوا أكثر أعضاء اللجنة .

ودعاهم الأب إلى الانتحار ، وحببه إليهم ، وزينه فى قلوبهم ، وملأ نفوسهم كراهية للحياة بأساليب نفسية بارعة .

---

(١) صحيفة الأخبار ، وصحيفة الأهرام الصادرتان فى ٢٢ ، ٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٧٨ م وتم الانتحار يوم ١٩٧٨/١١/٢١ .

ولا عجب فمن مبادئ الطائفة أن يتخلى العضو عن كل ممتلكاته للطائفة !!

ويتعرض لصور من غسيل المخ ، والاستهواء الذاتى ، ونحو ذلك .

تقول عضوة سابقة فى الطائفة : إن الأب جيم جونز ، كثيراً ما يرتقى مذبح الكنيسة فى أيام الآحاد ، ويتساءل : من منكم سوف يتنازل عن حياته من أجلى ؟ من منكم سوف يقدم حياة أطفاله من أجلى ؟ من سيقدم حياة زوجته ؟!!

وتقول العضوة « لينا » كانت الجموع تتدافع ، وتقول فى صياح « أنا يا أبتاه » !!

والصورة التى تم بها الانتحار بالغة العجب : قدمت الأمهات السم لأطفالهن فى عصير البرتقال ، ورأين الأطفال يتساقطون !!!

ثم شربن السم وراءهم فى هذا العصير ، وتبعهم رجال ، وهكذا .

وحاول بعضهم أن يفيق ويسترد إرادته ، فلاحقه حراس الطائفة ، وأطلقوا عليهم النار وفر آخرون فى الأحراش والغابات .

فما هذا الإيمان الذى يجرد صاحبه من الإنسانية ، من الرحمة ، من الإرادة الواعية ، ويستجيب لقس مجنون ؟ !!

إنه الخبال بعينه ، وكل إيمان يمكن أن يلقى صاحبه هذا المصير متى كان بعيداً عن هدى الإسلام وهداه .

ثم ما رأيك فى إيمان يفقد معه الإنسان حريته وكرامته ؟ !

إنه لم يبذله باخلاص لربه ، ولو فعل لكان حرا ، كريماً ، ولكنه بذله كاملا لشيخه ، يأتمر بأمره ولا يعارضه ، ولا يناقشه ، حتى لا يطرد من ساحة عطفه ، ولابد له أن يكون سليب الإرادة بين يديه ، كالميت بين يدى غاسله . إذا عرفت هذا تقررت أمامك هذه الحقيقة ، « الإيمان بلا إسلام خيال وغلو » .

والإسلام شواطىء محكمة توجه برفق وحكمة ، وبصيرة هادية لفيوض الحماسة والعاطفة التى يفيض بها قلب المؤمن ، فإذا بالإيمان مع الإسلام أداة بناء ، ووسيلة ارتقاء ، ومنهج حرية وكرامة .

ويبقى بعد هذا حق على الإنسان الذى آمن إيمان المسلمين أن يقول: الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

الفصل الثانى

التوحيد فى الإسلام

١ ـ كلمة التوحيد فى الإسلام .

٢ ـ معنى لا إله إلا الله .

٣ ـ النفى والإثبات فى كلمة التوحيد .

٤ ـ لا إله إلا الله يندرج تحتها كل عقائد التوحيد .

٥ ـ مضمونها السياسى والاجتماعى .

٦ ـ لكلمة التوحيد ركنان : العبودية ولفظ الله .

٧ ـ مظاهر العبودية .

٨ ـ لفظ الله ـ مضمونه ومؤداه .

٩ ـ خصائص العقيدة الإسلامية .

١ – كلمة التوحيد فى الإسلام

للاسلام الحق مدخل منه يلج الراغب فى الهداية إلى جوانب الخير والفلاح فى الإسلام .

وله شعار لآبد أن يعلنه الراغب فى الإسلام بلسانه إيذاناً بأنه قد أسلم قلبه .

هذا المدخل ، أو قل هذا الشعار هو لا إله إلا الله .

فى عصر الرسالة المحمدية ، المكية منها ، والمدنية ، كان الراغب فى الإسلام يقدم بين يدى الرسول عليه الصلاة والسلام عهده وبيعته بالإسلام عن طريق الإعلان بالشهادة .

ولا إله إلا الله . المدخل والشعار ، لها معنى كبير ، ومضمون عظيم ، يتجاوز فى عمقه وشموله تصورات الكثيرين .

فهى شاملة للجانب العقيدى كله فى الإسلام .

ولها مضمون سياسى كبير .

ولها أيضاً مضمونها الاجتماعى .

٢ – معنى لا إله إلا الله

قبل أن نسبر غور هذه العبارة ، ونتعمق وراء مؤدياتها العميقة والدقيقة نريد أن نعرض لمعناها ، ولما تدل عليه من مراحل وخطوات موصلة للعقيدة السديدة .

معنى أله : أحب حباً شديداً ، أو عبد ، والإله هو معبود ، وإذا ذكر منكرا فى القرآن الكريم ، فمراد به المعبود سواء أكان بالحق أم بالباطل .

ومعنى العبارة كلها : لا معبود بحق إلا الله .

فكأن الإنسان يدخل الإسلام مقدماً بين يديه هذا الإصرار أو العزم القاطع على العبودية لله وحده .

وقد ذكرت لا إله إلا الله فى القرآن الكريم نحو أربعين مرة .

أكثرها بعبارة لا إله إلا هو .

ووردت قليلا لا إله إلا أنا – لا إله إلا أنت .

وذكرت بمعناها مثل اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً – اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فى مواطن كثيرة ومتعددة .

وأكثر ورودها فى السور المكية وفى الآيات التى تخاطب المشركين ، مؤكدة قضية توحيد الألوهية ، وردا على من تورطوا فى أخطاء تتصل به .

وعظمة هذا الشعار ، وما وراءه من مقدرة تعبيرية واسعة وعميقة أن الشطر الأول منه الذى يتضمن النفى عبارة عن نكرة بعد نفى ، ففيها تعميق للشمول والاستغراق ، ثم يأتى الشطر الثانى وهو الإثبات فنراه على صورة الاسم العلم الذى لا علم أعرف منه حتى إنه أكثر تعريفاً من الضمير بعد أداة الاستثناء ، ومعنى هذا بقدر ما فيها من توسيع رقعة نفى الألوهية عن الآلهة الباطلة تثبت العبودية للحق وحده .

٣ ــ النفى والإثبات فى كلمة التوحيد

للعقيدة الإسلامية ــ فى ضوء كلمة التوحيد ــ مرحلتان :

الأولى : نفى ، والثانية : إثبات .

وتعنى مرحلة النفى استبعاد الآلهة الباطلة من قلب المسلم ووجدانه فلا يكون لها سبيل إليه ولا سلطان عليه ، وهذه المرحلة تشير إليها عبارة لا إله بمعنى لا عبودية للآلهة الباطلة فى وجدانى ، وكأن المسلم يعلن فى مقدمة الشعار الإسلامى بأعلى صوته ، تسقط آلهة الأرض جميعاً ــ لا ألوهية للمال ، لا ألوهية للجاه والسلطان ، لا ألوهية للهوى ، لا ألوهية لأدعياء السلطان الروحى .

وتعنى مرحلة الإثبات : تأكيد العبودية للمعبود الحق وهو الله بعد إسقاط الآلهة الباطلة ، وهذه المرحلة يشير إليها الاستثناء فى كلمة التوحيد « إلا الله » .

مرحلة النفي إذن تعني تطهير القلب من الشرك بكل مظاهره وصوره ، ومرحلة الإثبات تعني غرس بذور التوحيد الخالص في القلوب التي طابت وطهرت .

وبهذا تتكشف لنا سمة من سمات العقيدة في الإسلام ، وهي أن من يبتغيها — على رشد وهداية — لا بد له من المرور بهاتين المرحلتين .

وهذا أمر قرره القرآن الكريم في مواطن عدة .

يقول تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله ، لهم البشرى ، فبشر عباد الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب »[1] .

فقد أشارت هذه الآية إلى المرحلتين :

أولاهما : اجتناب عبادة الطاغوت ، والمقصود بالطاغوت في البيان القرآني كل ما يصرف الإنسان عن ربه ، ويشغله عن عبادته ، ويلهيه عن التوجه إليه ، وهذا هو المقصود بعبادته .

ثانيتهما : الإنابة إلى الله ، وهذا هو الجانب الإيجابي ، ويعني به بناء العقيدة السليمة في القلب ، بعد تطهيره من عبادة الطاغوت .

وهذا شاهد آخر .

وصف الله عقيدة الإسلام بأنها العروة الوثقى ، التي لا تنفصم ، وبين الطريق إليها ، وأنه من مرحلتين : أولاهما : الكفر بالطاغوت ،

---

(١) سورة الزمر / ١٧و١٨ .

وثانيتهما : الإيمان بالله فقال تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)[1] .

وهذا يعنى أن الإيمان الصحيح بالله لابد أن يسبقه كفر صريح بغيره ، ومرحلة الكفر السابقة ، لها أهميتها البالغة فى تطهير قلب المسلم من رواسب الوثنية ، وأوزار الأعراف الضالة ، وأوشاب العادات والتقاليد المنحرفة ، وهذا يجرى على منهج القاعدة الفقهية : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

٤ ـ لا إله إلا الله يندرج تحتها كل عقائد التوحيد

لا معبود بحق إلا الله . عندما يتأصل هذا الاعتقاد فى يقين الإنسان تنبعث عنه كل المعتقدات الإسلامية فى جوانبها الثلاثة : الإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات .

ففى آية الكرسى ، التى نرددها عقب صلواتنا ، والتى لها شأنها العظيم بين آيات القرآن الكريم ، وفيها يقدم رب العالمين نفسه لعباده إذ يقول جل شأنه : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشئ

---

(١) سورة البقرة / ٢٥٦ .

من علمه ، إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولايؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم)[1] .

قدمت هذه الآية عددا من صفات الكمال التى يتصف بها رب العزة ، فهو الحى ، القيوم ، الذى لا ينام ، والمالك لكل شىء ، والذى يحكم بالعدل فى اليوم الحق ، والعليم بكل شىء ، ولا يحيط بشر بشىء من علمه إلا بمشيئته كأن يمنح هذا العلم لمن يرتضيه من رسله ، وأن حفظ الكون العظيم لا يتعبه وأنه العلى العظيم .

إن الإيمان باخلاص العبودية لله وحده يفرض علينا أن نصفه بكل كمال ، وأن ننزهه عن كل نقص ، وهذا هو المقياس العام للصفات الإلهية ، يقول تعالى : (ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير)[2] .

كما يفرض علينا هذا الإيمان أن نؤمن برسل الله وأنبيائه الذين يتلقون وحيه ، ويبلغون للبشر رسالته ، فيقول تعالى : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، إن الله سميع بصير)[3] وقال تعالى : (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين)[4] .

---

(١) البقرة / ٢٥٥ .
(٢) الأنعام / ١٠٢ – ١٠٣ .
(٣) الحج / ٧٥ .
(٤) الأنعام / ٤٨ .

وبحكم هذه العقيدة نؤمن بالكتب التى أنزلها الله على رسله ، وبعلاقة هذه الكتب بعضها ببعض وموقف القرآن الكريم منها ؛ إذ يقول تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ثم يقول : (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) ثم يقول (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه)[1] وفى هذه الآية الأخيرة يتحدد موقف القرآن الكريم من الكتب السابقة ، وأن له حق الهيمنة عليها بمعنى أنه الكاشف لما أدخل عليها من زيف وتلبيس ، والفاضح لأهواء أصحاب الأهواء . يقول تعالى فى شأن الرسل وما أوحى إليهم من كتب فيقول تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ، لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً)[2] .

وكما يدخل فى إطار كلمة التوحيد العبودية لله وحده ، والإيمان برسله ، الذين يحملون رسالاته ، وبكتبه التى تتضمن مناهج دينه ، كذلك تتضمن الإيمان بملائكته الذين يقول الله فيهم (وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون)[3] وقال فيهم (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه

---

(۱) المائدة / ٤٨ .

(۲) النساء / ١٦٥ - ١٦٦ .

(۳) الانفطار / ١٠ - ١٢ .

رقيب عتيد)[1] وقال فى شأنهم (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)[2] ووصفهم الله تبارك وتعالى فقال : (وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون)[3] وقال (فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون)[4]

وقد ذكر القرآن الكريم بعضهم بأسمائهم أو بوظائفهم فقال : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم)[5] ويقول تعالى : (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقاً لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ، ورسله ، وجبريل ، وميكال فإن الله عدو للكافرين)[6].

وتحدث القرآن الكريم عن عقيدة الإيمان ، وما يستتبعها من عقائد ، فقال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله) والإيمان باليوم الآخر من نتائج لا إله إلا الله .

---

(١) ق/ ١٧ ، ١٨ .
(٢) الرعد/ ١١ .
(٣) الأنبياء/ ١٩ — ٢٠ .
(٤) فصلت / ٢٨ .
(٥) السجدة/ ١١ .
(٦) البقرة/ ٩٧ ، ٩٨ .

وذلك أن العبودية لله الواحد تتطلب من العابد الواعى أن يكون على ثقة من عدله وحكمته ، وهذا يتطلب البعث والنشر ، ويوم القيامة ، وما فيه من حشر ،وحساب وميزان ، وصراط ، وجنة ونار ، ومشاهد مختلفة جاءت فى أصدق الكلام الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وبرغم أن هذه المعتقدات نؤمن بها لورودها بالسماع من الصادق الذى لا ريب فى صدقه فإنها قضية عقلية بالدرجة الأولى ، وقد عرضها القرآن الكريم على هذا النحو ؛ إذ يقول تعالى : (إن الذين يكفرون بآيات الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار » .

ومعنى هذا بمنهج عقلى أن إنكار يوم القيامة معناه يترتب عليه أن الكون المحكم البديع خلق عبثاً وباطلا ، وهذا أمر يرفضه العقلاء، وأمر آخر يرفضه أولوا الألباب (وهو التسوية بين المصلح والمفسد مادامت النهاية فناء بلاحساب) ؛ فيقول تعالى ذلك : (أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار)[1] ؟ !

وقد جاءت هذه القضية فى سورة أخرى ؛ إذ يقول تعالى : (إن

---

(١) ص آية ٢٧ ، ٢٨ .

للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون)[1] وهنا تتجه الآيات بأسئلة هادية تفتح الطريق أمام العقول الواعية لتوقن بقضية البعث وقضية الحساب .

والإيمان بالقضاء والقدر ثمرة حتمية لما تستلزمه « لا إله إلا الله » حين تعيها القلوب وتستيقنها ؛ إذ أنها تثمر ثقة فى الله الواحد ، وبكل ما يقضى به ويقدره ، وهذه أمور سجلها القرآن الكريم فى مواجهة عقيدة الإيمان الخالص ، وما تهدى إليه من عقائد راشدة ، وتصورات صحيحة ، فيقول تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم)[2] ويقول تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ، ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور)[3] .

ويقول تعالى : (وكان أمر الله قدراً مقدوراً)[4] ويقول تعالى : (وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله ، وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)[5] .

---

(١) القلم / ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) التغابن / ١١ .
(٣) الحديد ٢٢، ٢٣
(٤) الأحزاب / ٣٨
(٥) البقرة / ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧

وهكذا تنبع كل معتقدات المسلم فى الجانب الإلهى ، وجانب النبوة ، وما يتصل بها من أوصافهم والآيات التى أيدوا بها ، والسمعيات التى تتصل بعالم الغيب ، وعندما تنبع منها إنما يأتى هذا على أساس عقلى ومنطقى تؤيده عشرات الشواهد من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة مما يؤكد عمق هذا الشعار ، وشموله ، وعظم محتواه ، ووعيه لكل تصور سديد ، وكل معتقد صحيح .

٥ ـ المضمون السياسى لكلمة التوحيد

تعد كلمة التوحيد المنطلق الصحيح للحرية الحقيقية ، ولن تتاح الحرية الصحيحة التى يتحرر بها وجدان المسلم وعقله من كل ذل واستخذاء وشعور بالهوان والضعف إلا فى ظلال هذه الشهادة أو قل : هذه الكلمة المعبرة الموحية .

فماذا وراءها من مضمون ؟

المعبود بحق هو الله وحده ، رب السموات ، ورب الأرض ، رب العالمين ، وكل ما عداه من الأشياء والموجودات ، ومن عداه من بنى الإنسان عباد له (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً)[1] وبهذا يتحرر العقل الإنسانى من كل شعور بالذل أو العبودية لغيره ، ويجد فى ظلال العبودية للرحمن الرحيم ، اللطيف ، الودود ، الكريم ، الغنى ذى

---

(١) سورة مريم/ ٩٣ ، ٩٤ .

القوة المتين ، مالك الملك ذى الجلال والإكرام – ذاته ويحس بكرامته ، ويعتز بانسانيته ، ويصر تماماً على أن يكون هو المالك لأمر نفسه .

ولذلك كل من قال : لا إله إلا الله بيقين وصدق وإخلاص شعر بحرية واسعة ، وسعادة بالغة .

وعندما دعا النبي محمد عليه الصلاة والسلام قومه إلى عبادة الله وحده رافعاً شعار لا إله إلا الله الذى رفعته الرسل من قبله ، تحرر العبيد ، وقوى المستضعفون ، واكتشفوا فى أنفسهم قوة عظيمة فجرتها لا إله إلا الله جعلت السادة يرهبون عبيدهم الذين تحرروا بلا إله إلا الله ، وأذهلهم شموخهم واعتزازهم بأنفسهم ، وكانوا مع ما يعانونه من بغى واضطهاد سعداء بحريتهم ، فبلال بن رباح وهو فى قسوة التعذيب يقول : أحد . أحد ، هتافاً بالمعبود الواحد ، الذى حررته العبودية له .

وروعت قريش من إيمان العبيد ، وإيمان المستضعفين ، وسر هذا الروع أنهم وجدوا هؤلاء الناس فى ظلال التوحيد عمالقة كباراً ، وأحراراً أعزاء .

ولم يتحرر بها الأفراد وحدهم ، وإنما تحررت بها الأمم والمجتمعات ، فثلت عروش ، وتهاوت تيجان ، وسقط طغاة ، وولت امبراطوريات

لقد أعلن النبي عليه الصلاة والسلام أن قاعدة الحرية قائمة على قاعدة العبودية لله وحده ، وذلك يوم الحج الأكبر ، يوم عرفة من السنة

العاشرة للهجرة عندما قال : أيها الناس إن إلهكم لواحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب .

وقالها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مناسبة كهذه المناسبة ؛ إذ قال لعمرو بن العاص يؤنبه على ما سلف من ابنه فى حق القبطى المصرى ، ويقول له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ .

إن دليل التحرر يتمثل فى القدرة الخارقة على مواجهة الأقوياء .

وقد واجه النبى عليه الصلاة والسلام بغى قريش وعنفها ، كما واجه احتيالها فيما قدمته من عروض سلمية بنفس الإصرار الذى واجه به تهديدها ، وقال لعمه أبى طالب : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر لن أتركه حتى يظهره الله أو أهلك دونه !! .

المضمون الاجتماعى :

والمضمون الاجتماعى لشهادة التوحيد يسير فى تيار المضمون السياسى ؛ لأن الأخير إذا كان يعنى تحرر العقل والفكر والجوارح من العبودية لغير الله فإن الأول يعنى المساواة بين البشر فى هذه العبودية بحيث لا يكون للانسان مع إدراك هذا المضمون الحق فى ادعاء أى تميز مهما كان باعثه !!! جاه أو مال ، أو سلطان ، أو حسب ونسب ، والله تبارك وتعالى يقول : (يأيها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير)[1] .

فإذا كانت لا إله إلا الله وهى محور العقيدة تعلمنا أن المعبود واحد ؛ إذن المساواة قضية حتمية ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

لقد سوت بين البشر فى العبودية لله وحده ، وأذابت الفوارق بين المختلفين فى الأجناس والألوان والأحساب ، كما أذابت البغضاء من القلوب ، وأصبحت القبائل المتنافرة ، المتناحرة بفضل الله إخوانا.

لقد فزعت قريش من لا إله إلا الله ، وأحفظها منها أنها ستلغى المعايير التى كانت قريش تعول عليها ، وأنها ستجعلها مع القبائل الأخرى سواء ، وبذا يذهب عنها ما كانت تعتز به من سلطان اقتصادى وسلطان تجارى . وكان ذلك سبباً من أسـباب عنتهم وبغيهم وأخبرنا القرآن الكريم بذلك عنهم فقال سبحانه : (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون)[2] فهم على علم بأن الهدى مع رسول الله ، وخوفهم من تقبل الهداية ما يترتب على العبودية الصحيحة لله من ضياع المقاييس البشرية

---

(١) الحجرات / ١٣ .

(٢) القصص / ٥٧ .

الزائفة والتى كانت موطن اعتزاز القوم ، ولأنهم وجدوا فى رحاب الظاهرة الشركية ، الشائعة فيهم ، والتى تعتمد على وساطة الأصنام والأوثان عند الله ، دعما للفكر الطبقى ، الذى كانوا يعدونه ضرورة لحياتهم .

ومن مظاهر ذلك فى حياتهم أن قريشاً كان لها فى الحج طريق خاصة بهم يفيضون منها إذا انتقلوا من عرفة إلى منى ، وكان من فطرة النبي صلى الله عليه وسلم فى استقامتها أنه كان يفيض مع سائر العرب ، وكان هذا التصرف فى مقدمة الأمور التى استاء لها قومه ، ثم انتهوا أخيراً بعد تبادل الرأى إلى خطة استحسنوها ، واقترحها بعض علمائهم ؛ إذ قالوا : لا بأس أن يسير محمد على منهجه حتى يجتمع لقريش فضيلتا العظمة . والتواضع جميعاً وظل الأمر على هذا النحو حتى فرض الحج فى الإسلام ، ونزل قوله تعالى : (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)[1] .

وكان من حديث القرآن الكريم عنهم ، الذى يصف استياءهم من لا إله إلا الله ، ومضمونها الاجتماعى قوله تعالى : (إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون : أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون)[2] .

والآية تكشف عن مدى حفيظتهم على رسول التوحيد ، لا رغبة

---

(١) سورة البقرة/ ١٩٩ .

(٢) الصافات / ٣٥ ، ٣٦ .

عنه فهم ورثة الحنيفية ولكن هرباً من المضمون الاجتماعى الذى جعلهم يتشبثون بمن ألهوهم ، وعدوهم لله شفعاء ، ووصفوا بالجنون من قال الله فيه : (وإنك لعلى خلق عظيم)[1] .

والتعبير بلفظ « يستكبرون » يدل دلالة واضحة على الباعث الصحيح عند القوم ، وهو الخوف من المساواة ، وليس خوفا من عقيدة التوحيد فى ذاتها وإلا لقال : يعرضون ، أو يكفرون ، أو يجحدون .

وجاء بهذا المعنى قوله تعالى : (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)[2] .

فما سر الاشمئزاز ؟ وما سبب الاستبشار ؟

يشمئزون من ذكر الله وحده ؛ لأنه يعنى انتهاء تقديس العظماء وأصحاب الأحساب والأنساب .

ويستبشرون بما هم فيه من شرك ؛ لأنه يتيح الفرصة لسيطرة أخلاق الوثنية .

وفى خطبة الوداع يوم الحج الأكبر أعلن النبى صلى الله عليه وسلم حق المساواة فى ظلال لا إله إلا الله كما أعلن تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان .

---

(١) القلم/ ٤ .

(٢) الزمر/ ٤٥ .

٦ – لكلمة التوحيد ركنان

تدور شهادة التوحيد التى تحدثنا عنها ، وتناولنا معطياتها الواسعة والعميقة حول محورين أساسيين هما : العبودية ، ولفظ الله ، العلم الأعظم ، المعبر أصدق تعبير عن الذات الإلهية .

ويتصدرها النفى ، ويتخللها الاستثناء .

العبودية . . . والعبادة . .

العبادة والعبودية ، والتعبيد تدور هذه الألفاظ وما يقرب منها من مشتقات حول معنى التذليل والانقياد ، وتقول : عبدت الطريق إذا أصبح سهلا ذلولاً لا يجد السائر فيه عقبات . وفى هذا المعنى جاء قوله تعالى : (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل)[1] أى ذللتهم وسخرتهم لطاعتك بحيث لا يملكون لك مخالفة .

والعبادة رسالة الكون كله . . فكل مخلوق يعبد الله على نحو معين (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم)[2] .

وغير المكلفين عبوديتهم فطرة وغريزة ، ولا يستطيعون المخالفة .

يقول تعالى : (ويسبح الرعد بحمده)[3] (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم)[4] .

---

(١) سورة الشعراء/ ٢٢ .

(٢) الصف/ ١ .

(٣) الرعد/ ١٣ .

(٤) الإسراء/ ٤٤ .

وقال تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها)[1] .

ومعنى هـذه الآية فى أقوم تفسير وأعدله : أن هذه المخلوقات أبت أن تتحمل إثم الخيانة وسارت على طريق الالتزام .

ومنه قوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ، ومن فى الأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والشجر ، والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب)[2] .

والعبودية لغير المكلفين تعنى خضوعها للسنن الكونية ، والتزامها بالنظام الإلهى فى الكون قال تعالى :(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون)[3] .

وأما المكلفون فعبوديتهم على الاختيار ، فهى بالنسبة لهم ابتلاء واختبار .

فهم بما ركب فيهم من شهوات وغرائز يملكون المخالفة ، فهم يملكون توحيد العبادة ، كما يملكون الشرك ، ويملكون الإيمان ، كما يملكون الكفر ، وبيدهم الطاعة والمعصية .

وعبودية المكلفين تعنى الخضوع لله وحده ، بالالتزام بمقتضيات

---

(١) الأحزاب/ ٧٢ .
(٢) الحج/ ١٨ .
(٣) يس/ ٤٠ .

السنن الكونية ، وتنفيذ أوامر الشريعة التى شرعها الله لهم ، وجعلها نظاما يسيرون عليه فى كل شئون حياتهم .

وعبادة المكلفين بهذه الصفة التى شرحتها هى الغاية الكبيرة وراء خلق الإنسان .

يقول الله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)[1] .

وبلا ريب فإن العبادة التى جعلها الله غاية لخلق الإنس والجن ليست مقصورة على ظواهرها المعروفة من صلاة وصيام وحج وزكاة ونحوها وإنما هى تعنى معنى أوسع وأشمل . الالتزام التام بالنظامين : الكونى والشرعى لكى تستقيم الحياة على الأرض ، وتؤدى غايتها المرسومة .

٧ ـ مظاهر العبادة

والعبادة اسم جامع لكل صفات الخير والبر والطاعة .

ومنها العبادات الجسمية كالصلاة ، والصيام .

ومنها العبادات المالية كالزكاة والصدقات والنذور .

ومنها العبادات البدنية والمالية مثل الحج .

ومنها العبادات القولية مثل : الحلف والدعاء .

---

(١) الذاريات/ ٥٦ ، ٥٧ .

ومنها العبادات القلبية كالحب والخشية ، والرغبة ، والرهبة ، والأمل والرجاء .

وكل هذه المظاهر يجب أن تتجه لله وحده حتى يتحقق توحيد العبادة .

دراسة موجزة لبعض مظاهر العبادة

عبادات يفسدها الرياء :

لابد أن تكون العبادة لله وحده ، ومما يتنافى مع توحيد العبادة الرياء ؛ لأن الرياء أن يقصد الإنسان فى عبادته ثناء الناس ، وقد جاء فى الحديث : الرياء هو الشرك الأصغر .

والعبادات التى يفسدها الرياء كالصلاة والحج والزكاة والصدقات ، والجهاد .

وهناك عبادات قولية أو قلبية يستهين الناس بأمرها ، فيتجهون بها لغير الله ، ظناً منهم أنهم لا يقصدون الشرك ، وأن اليقين بالتوحيد مستقر فى القلب .

ولو قبلنا هذه الحجة لوجب علينا أن نقبل حجة مشركى العرب عندما قالوا : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

ومن هذه العبادات .

النذر :

وهو توجيه عبادة معينة من غير الفريضة والتطوع لله ، نتيجة لتحقق مطلب معين يرجوه الإنسان من ربه وهو كما جاء فى الحديث ، لا يغير من القضاء ، ولكنه تدريب للبخيل على البذل والعطاء .

وقد وصف الله الأبرار بالوفاء بالنذر فقال تعالى : (يوفون بالنذر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا)[1] وقال تعالى فى شأن الحجيج : (ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق)[2] .

والنذر لا يكون إلا لله ، فلا ينبغى أن يرتبط به غير اسمه ، أو أن يقيد بمكان غير البيت الحرام ، ولابد أن يكون من شئ يملكه الإنسان ملكا تاماً .

ففى غزوة حنين والطائف وقعت امرأة مسلمة أسيرة أو كادت ، ثم لاحت لها ناقة فركبتها لتلحق بجيش المسلمين وقالت : لئن أنجانى الله بها لأذبحن هذه الناقة نذراً لله .

ونجت المرأة على ظهر هذه الناقة ، وتبين أنها ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم — القصواء .

ولما علم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك قال : بئسما جزيتها ، تنجيك وتذبحينها . لا نذر إلا لله ولا نذر فيما لا يملك ابن آدم .

---

(١) سورة الإنسان / ٧ .

(٢) سورة الحج / ٢٩ .

الدعاء :

الدعاء هو الطلب بذل وخشوع لقضاء مصالح يرجوها الإنسان من ربه ، ولا يقدر عليها غيره وهو مظهر من مظاهر العبادة ، وينال الإنسان بدعائه لله قربى من الله ، وزلفى إليه ، ومثوبة منه .

ووصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الدعاء مخ العبادة .

والدعاء منهج المؤمن الصادق ينبغي له أن يحرص عليه صباحه ومساءه ، وغدوه ورواحه ، يقول تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين)[1] .

والدعاء لا يكون إلا لله ، ودعاء غير الله ظاهرة من ظواهر الشرك ينبغى أن ينأى عنها المؤمن الصادق ، قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ، ثم كيدون فلا تنظرون)[2] .

ووصف القرآن الكريم حماقة من يدعو غير الله ، وخيبة مسعاه ، وأنه كمن يصرخ فى واد ، وينفخ فى رماد ، ويبتغى الغاية البعيدة على راحلة كليلة فقال تعالى : (إن تدعوهم لا يسمعوا

---

(١) سورة الأعراف / ٥٥ .

(٢) سورة الأعراف / ١٩٤ ، ١٩٥ .

دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير)[1] .

وفى القرآن الكريم حث على دعاء الله وحده ، ووصف للمعرضين عن دعائه بالاستكبار ، الموقف بصاحبه إلى النار ، فيقول تعالى : (وقال ربكم ادعونى استجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى ، سيدخلون جهنم داخرين)[2] ونلحظ فى الآية المعادلةالتامة بين الدعاء والعبادة ، وأن المستكبر عن الدعاء مستكبر عن العبادة .

وأكد الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم قربه من عباده ، ورحمته بهم فهو فى غير حاجة إلى واسطة تقرب ، ولا إلى شفيع يحمى المشفوع فيه من غضب المشفوع عنده ، يقول تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون)[3] .

الرغبة والرهبة :

من مظاهر العبادة الرغبة فى الله ، فىالتمسك به وبدينه والحرص على شريعته ، ومواصلة السير فى دأب على سبيله .

وكانت الرغبة فى الله من أقوم السلوك الذى دعا الله إليه نبيه محمداً

---

(١) فاطر / ١٤ .

(٢) غافر / ٦٠ .

(٣) البقرة - ١٨٦ .

عليه الصلاة والسلام إذ يقول تعالى : (وإلى ربك فارغب)[1] .

وهى من صفات المؤمنين المخلصين ؛ إذ يقول تعالى : (وقالوا حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون)[2] وهى غاية للمتقين الذين تستيقظ ضمائرهم بعد التورط فى الخطأ ، يقول تعالى على لسانهم : (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ، إنا إلى ربنا راغبون)[3] .

والرهبة ضرب من الخوف ، وهى منه أشد ، وتكون بأن تمتلىء مشاعر الإنسان إحساساً بجلال الله ، وعظمته ، وقوة سلطانه ، وسعة علمه ، وقوة بطشه ، ولذا كانت أدخل فى باب العبودية .

يتحدث القرآن الكريم عن التوراة ، ودورها فى الهداية ، لكن من ذا الذى ينتفع بها من بنى إسرائيل ؟ يقول تعالى : (وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)[4] وفى نصح بنى إسرائيل يقول تعالى أيضاً : (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون)[5] .

وذكر مظهر رهبته فى الحديث عن بنى إسرائيل يشير إلى مدى إغراقهم فى الأمانى حتى فاتهم الخوف من مقام الله ، فوقعوا فى معاصيه .

---

(١) الشرح / ٨ .
(٢) التوبة / ٥٩ .
(٣) القلم / ٣٢ .
(٤) الأعراف / ١٥٤ .
(٥) البقرة / ٤٠ .

والخروج عن سنن الوحدانية للخالق العظيم خطيئة عظيمة ، ومن هنا دعا الله المشركين إلى رهبة الله الذى آمنوا به ، وفاتهم توحيده فقال : (وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فإياى فارهبون)(١) .

والرغبة والرهبة من أبرز مظاهر العبودية عند المصطفين الأخيار من رسل الله وأنبيائه ؛ إذ يقول تعالى بعد الحديث عنهم فى أواخر سورة الأنبياء : (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ، ورهباً وكانوا لنا خاشعين)(٢)

الأمل والرجاء :

يطلق الأمل على كل ما يعلق به المرء نفسه من متع الدنيا وزينتها ، وعندما يكون هذا مبلغ ما يعمل له الإنسان تصبح حياته لهواً وضلالا ، ومتاعاً قليلا ، وعاب القرآن الكريم على الإنسان الكافر هذا المنهج الذى فيه ضياعه ، وتدمير رسالته الإنسانية قال تعالى : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون)(٣) .

وعندما يكون الأمل معلقاً بالله وحده ، حرصاً على دينه ، واستمساكاً بشرعه يصبح ظاهرة معبرة عن صحة العقيدة ، وإخلاص

---

(١) النحل / ٥١ .
(٢) الأنبياء / ٩٠ .
(٣) الحجر / ٣ .

العبادة ، ولهذا قال جل شأنه : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ، وخير أملا)[1] .

والرجاء فى الله من مظاهر العبادة الخالصة .

وهو من المظاهر الفاصلة بين قوة العزم فى يقين المؤمن ، وذلة الضعف ، وتخاذله عند المشرك الكافر الذى انقطع حبل الرجاء بينه وبين مولاه ؟ إذ يقول تعالى : (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيما)[2] .

والرجاء فى الله ليس مجرد تطلع لا يتجاوز دائرة الرغبات ، والتطلعات ، وإنما هو عمل وجهد والتزام ، ليكون الإنسان أهلا لهذا الرجاء ، وهذه حقيقة قررها القرآن الكريم ؟ إذ يقول تعالى : (إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم)[3] كما قال تعالى : فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)[4] ويقول تعالى : (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم)[5] .

وقد رسم القرآن الكريم عدة ملامح لمن يرجون الله .

---

(١) الكهف / ٤٦ .

(٢) النساء / ١٠٤ .

(٣) البقرة / ٢١٨ .

(٤) الكهف / ١١٠ .

(٥) العنكبوت / ٥ .

اتخاذ الأسوة الحسنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدرك قيمتها هؤلاء الذين تعلق رجاؤهم فى الله يقول جل شأنه : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً)[1] (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)[2]

٨ - لفظ الجلالة « الله » مضمونه ومؤداه

المحور الثانى الذى تدور عليه كلمة التوحيد هو لفظ « الله » أشرف الأعلام فى تعبيره الصادق والدقيق والشامل عن الذات الإلهية السامية .

ويقول عنه علماء اللغة : إنه أعرف المعارف ، وذلك لأنه بمجرد التلفظ به ينطبع فى الذهن المعنى العظيم ، الذى يحفز الإنسان إلى العبودية الصادقة .

وهو مشتق مادة « أله - يأله » وهى المادة الدالة على العبودية فى أجلى صورها وانتهى فى تطوره اللغوى إلى هذه الصورة التى تعنى المعبود بحق ، وكون هذا العلم فى صورته النهائية يأتى مبدوءا بأل الدالة على الحضور ، مختوما بالهاء الدالة على الغيبة وكأن المراد فى النهاية الحاضر فى كل وقت الغائب عن مستوى إدراك البصر ، (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير)[3].

---

(١) الأحزاب / ٢١ .

(٢) الممتحنة / ٦ .

(٣) سورة الأنعام / ٣ .

يقول سيبويه : واعلم أنه لا يجوز لك أن تنادى إسماً فيه الألف واللام البتة ، اللهم إلا أنهم قالو يا الله اغفر لنا . وذلك من قبل أنه إسم يلزمه الألف واللام لاتفارقانه ، وكثر فى كلامهم ، فصار كأن الألف واللام فيه بمنزلة الألف واللام التى من نفس الكلمة» «كما يقول : وكان الإسم – والله أعلم – أله ، فلما أدخل فيه الألف واللام حذفوا الألف ، وصارت الألف واللام خلفاً منها ، فهذا أيضاً يقويه أن يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف ، ومثل ذلك أناس »[1] .

ويقول المبرد فى دخول ياء النداء على لفظ الجلالة مع بقاء أل : ولذلك قالوا : يا ألله اغفر لنا لما كانت فى اسم لاتفارقه ، وثبتت فى الاستفهام فعلوا بها ذلك[2] .

ومن الخصائص اللغوية لهذا اللفظ .

– مجىء همزته للقطع وللوصل ، تقول : والله أو بالله كما تقول : يا ألله[3] .

– تدخل اللام على اسم الله فى القسم بمعنى التعجب مثل : لله ما رأيت كاليوم قط .

– تلحق بآخره الميم المشددة عوضاً عن ياء النداء مثل اللهم[4] .

(١) الكتاب جـ ١ ص ٣٠٩ .

(٢) المقتضب جـ ١ ص ٢٥٣ .

(٣) شرح الكافية للرضى جـ ٢ ص ٣١ .

(٤) المقتضب جـ ٤ ص ٢٣٩ .

وقد ورد ذكر لفظ الجلالة فى القرآن الكريم نحو اثنين وسبعمائة وألفى مرة .

وقد جاء بصيغة الرفع فى ٩٨٠ موضعاً .

وجاء بصيغة الجر « ١١٢٥ » موضعاً .

وجاء بصيغة الفتح « ٥٩٢ » موضعاً .

وبصيغة « اللهم » خمس مرات جاءت فى السور الآتية على الترتيب. قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء)[١] (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء)[٢](وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)[٣] (دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام)[٤] (قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك)[٥] .

وتردد اللفظ بصيغة الجر أكثر من غيره ؛ لأن استخدامات هذا اللفظ العظيم لغويا تتطلب إضافة غيره إليه ، إما حروف قسم ، أو ألفاظ تفيد التنزيه ، أو حروف جر ذات معان خاصة تكشف عن أهمية ما دخلت عليه .

---

(١) آل عمران / ٢٦ .

(٢) المائدة / ١٤٤ .

(٣) الأنفال / ٣٢ .

(٤) يونس / ١٠ .

(٥) الزمر / ٤٦ .

وكثرتها فى حالة الرفع ؛ لأنه محور المعنى فى الجملة ، ومداره فى أغلب الأحيان .

ووروده فى حالة الفتح أقل من غيرها ؛ لأن حالة الفتح فى اللسان العربى تعنى أن الإسم المفتوح دلالته غير أصيلة أو غير أساسية فى الجملة إلا فى حالات معينة مثل اسم إن وخبر كان ، ومفعولى ظن وأخواتها .

وأما لفظ « اللهم » فكان استخدامه قليلا بهذه الصورة ؟ لأنه كان اللفظ الذى شاع استخدامه عند العرب قبل الإسلام ، حتى إنهم اشترطوا على النبى أن يكتب الاسم العظيم بهذه الصورة فى ميثاق الحديبية ، ومن هنا كان استخدام القرآن الكريم له بقدر .

وهناك أمر آخر يتصل بهذا الإسم الكريم وهو أن القرآن الكريم يصفه فى مواضع مختلفة بالبركة ومن ذلك قوله تعالى : (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام)[1] .

وأمر آخر ...

من حيث المؤدى والمضمون وهو أن هذا اللفظ بهذا الإيحاء الذى أشرنا إليه ، وبهذه الدقة البالغة التى وصفناها ، وبهذا الأداء الذى لا لبس فيه ولا غموض ، وبهذه الدلالة على ذات خالق الوجود بما يحيط بها من صفات الكمال والسمو التى تملأ النفس هيبة وإجلالا

---

(١) الرحمن / ٧٨ .

وإكباراً يعد من هذه النواحي كلها — من مميزات اللسان العربى ، ولم يوجد له نظير فى أى لسان آخر من ألسنة البشر المنتشرة على الأرض بحيث يستوى مع اللفظ العربى بمزاياه ، ومبلغ ما تصل إليه لغة من اللغات فى التعبير عن لفظ الجلالة أن تختار لفظاً معبراً عن قوة غامضة ، أو غيب عام ، أو مؤثر أسطورى بحيث لايجد المتلفظ به القداسة التى يحسها فى أداء اللفظ العربى .

ومن هنا جاء اللفظ العظيم بكل أبعاد السمو فى التعبير والوظيفة اللغوية حتى صار آية الآياتِ ، ومثل الأمثال ، والأساس الثانى الذى تقوم عليه شهادة التوحيد .

٩ — خصائص العقيدة الإسلامية

على ضوء البيان الذى فصلته حول العقيدة فى الإسلام ، وحول كلمة الشهادة : مضمونها ومحتواها ، نستطيع أن نستعين بما سبق لكى نبرز عدداً من الخصائص لهذه العقيدة الكريمة وتلك العروة الوثقى .

فى مقدمتها . . أنها فطرة .

فعندما دعا الإسلام الناس على ألسنة الرسل جميعاً إلى الإيمانِ بالله ، والعبودية له وحده كان لهذه العقيدة صدى فى أعماق فطرة البشر ، فهم يؤمنون بالخالق ، القوى ، القادر ، العليم بكل شىء ، وأنه وحده يجب أن يعبد ، ولأجل هذا وصف الله دينه بقوله : (صبغة

الله ومن أحسن من الله صبغة)[1] كما قال (فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها)[2] ووصفها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله فيما يرويه البخارى : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » .

وتحدث القرآن الكريم عن أصل الفطرة ، وكيف غرست فى البشر ، فقال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)[3] .

وفطرية العقيدة دليل واقعيتها ، ورسوخها ، وتقبل الناس فى يسر لها ، كما أنها عنصر هام فى تأثيرها فى الأخلاق والسلوك .

وحوار القرآن الكريم للمشركين ، وتقديم هذه التساؤلات : (أفى الله شــك) (أ إله مع الله) (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) ـ يؤكد أن لها صدى فى أعماق البشر يدفعهم إن استقامت فطرهم إلى الجواب السديد .

ولا يصرف الإنسان عن عقيدة الفطرة إلا أهواء غالبة ، أو نزوع إلى تقليد الآباء والأجداد ، لا يتيح للانسان فرصة التفكير المجرد ،

---

(١) البقرة / ١٣٨ .
(٢) الروم / ٣٠ .
(٣) الأعراف / ١٧٢ .

أو التعصب لرأى معين ، أو أفكار ينشأ عليها منذ طفولته فى بيئته ، فتمس ستارا يحول بينه وبين الحق[1] .

ثانيها : بساطتها .

كل العقائد السائدة فى محيط البشر ، والتى توجه حياتهم وسلوكهم تدور فى سلسلة معقدة من التصورات الغامضة ، والأفكار المبهمة حتى نجد كثيراً من المؤمنين بغير دين الله ، أو برسالات حرفت ، يأخذون العقيدة قضايا لا يملكون مناقشتها أو الحوار حولها ، وقد يريحون أنفسهم بأنها قضايا لا تناقش .

وكان أصحاب الأديان الوثنية على امتداد فترات التاريخ ، ومعهم ما حرف من رسالات السماء يلجئون إلى الفن المسرحى ، ليستعينوا به فى حل عقد الدين عندهم ، والتى لا يستطيعون تبسيطها .

ولأجل هذا لم ينتشر الفن المسرحى فى أدب العرب منذ العصر الجاهلى ؛ لأنهم وهم ورثة الحنيفية لم يجدوا فى دينهم الموروث عن إبراهيم ، والذى حرفوه بادعاء الوساطة أو الشفاعة ، أو فى الرسالة التى جاء بها محمد عليه السلام لتقويم حنيفيتهم ، لم يجدوا فى هذا ولا ذاك ما يدعو للخيال المسرحى ، كما فعل المصريون القدماء ، أو اليونان ، أو الرومان ، أو أوربا فى العصور الوسطى ، والحديثة .

---

(١) مما يؤكده تاريخ العرب قبل الإسلام أن جماعة منهم ، وهم المتحنفون ، عرفوا بفطرهم السليمة توحيد الألوهية ، ومقتوا وساطة اللات والعزى ومناة وتأليهها لتشفع لهم عند الله ، ومنهم زيد بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وكثير من أهل البادية ، لأن الفطرة فى البادية كانت أقوم .

ولأجل هذا وصف الله دينه بالحنيف ، وقال : (فأقم وجهك للدين حنيفاً) كما قال : (ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً) وكما جاء فى الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة ، ليلها كنهارها لايعشو عنها إلا هالك » .

٣ ـ التناسق بين عناصرها .

فالجانب الإلهى متى استقر صحيحاً فى أعماق الإنسان ، يستلزم فهماً صحيحاً للنبوات ، ومهمة الأنبياء ، وآياتهم التى أيدوا بها ، وصفاتهم التى ينبغى أن يكونوا عليها ، كما يستلزم إيماناً راشداً بالسمعيات ، وقد أثبتنا حقيقة هذا التناسق عند تناولنا لكلمة التوحيد .

٤ ـ لها آثار بالغة العمق فى الأخلاق والسلوك .

ولا تجد عقيدة من عقائد البشر لها التأثير العميق فى رشد واستقامة ، كما تجد ذلك فى عقيدة الإسلام ، وهذه قضية سنتناولها بالتفصيل فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

٥ ـ نشأتها من خلال التفكر والنظر ، والسير فى الأرض .

وهذه أبرز سمة يتميز بها دين الله ، شواهده مستمدة من الواقع الكونى الذى يعيش فيه الإنسان ، ودلائله مستمدة من آيات الله ، وبديع صنعه فى هذا الوجود كما قال جل شأنه فى كتابه (سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[1] والأرض التى تستنبت فيها هذه العقيدة فطرة خصبة بريئة من التعصب والهوى .

---

(١) فصلت / ٥٣ .

فهى إذن لم تظهر فى ظل فكر بشرى ، أو فلسفة معينة يقدسها البشر ، ولم تكن صنع هوى إنسان يريد الزعامة والتسلط على أخيه الإنسان فى هذه الأرض .

٦ ـ مسايرتها للعقول الصريحة ، وأصحاب العقيدة الإسلامية هم أولو الألباب .

العقيدة الإسلامية وأولو الألباب :

كيف جاء هذا الارتباط ؟ وما منشؤه ؟ وما علاقة العقيدة القويمة بأولى الألباب . هذه قضية قرآنية ندرك أبعادها من خلال تتبعنا لحديث القرآن الكريم عن أولى الألباب . وبها يتأكد أن العقيدة من الإسلام عقل سليم ، ومنطق مستقيم وما جاء فى مجال العقيدة فى النصوص الصريحة فى الكتاب العزيز ، والسنة الصحيحة لا يخرج عن هذا الحد الراشد الذى أشرنا إليه .

ولأولى الألباب فى تقديرى بعد أعمق من عبارة أصحاب العقول؛ إذ أنها تعنى أصحاب العقول الواعية ، التى تعيش قضايا الحياة والوجود فى يقظة تامة ، ورشد وسداد .

وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى ستة عشر موضعاً .

وكلها تقترن بحقائق الإسلام الأساسية ، وقضاياه الكبرى ، وتوجيهاته المؤثرة .

فهم أصحاب الذكر والفكر والاعتبار ، وأدنى الناس إلى الموعظة ، والانتفاع بالآيات .

يقول تعالى : (هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب)[1] ويقول تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب)[2] ويقول : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب)[3] ويقول : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى)[4] كما يقول : (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب)[5] وقال أيضاً : (قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب)[6] ويقول جل شأنه (لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)[7] .

وهم أكثر الناس إدراكاً لأهداف التشريع الإسلامى قال تعالى : (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون)[8] .

ويبدو حكمة أولى الألباب ، ونفاذ بصيرتهم فى مجال العقيدة ، وذلك لما تتسم به العقيدة فى الإسلام من الحكمة والتعقل والرشد .

---

(١) إبراهيم / ٥٢ .
(٢) ص / ٢٨ .
(٣) البقرة / ٢٦٩ .
(٤) يوسف / ١١١ .
(٥) الرعد / ١٩ .
(٦) الزمر / ٩ .
(٧) آل عمران / ١٩٠ ، ١٩١ ؛
(٨) البقرة / ١٧٩ .

فهم مطالبون بالتقوى لأنهم أكثر الناس إدراكاً لهذه المنزلة العالية من منازل الإيمان واليقين ، فيقول تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب)[1] ويقول : (فاتقوا الله يا أولى الألباب)[2] .

وإذ يوجه القرآن الكريم الناس إلى العبودية الخالصة لله تعالى وحده ، ويحذرهم من الطاغوت داعياً لهم إلى اجتنابه يصف هؤلاء الذين حافظوا على مقام العبودية الصحيحة بأنهم مهتدون ، وأنهم أولو الألباب فقال تعالى : (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله لهم البشرى ، فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)[3] .

ونلحظ من هذه الآية صفة هامة تميز بها العابدون أولو الألباب ، وهي استقامة منهج الاستماع فى سلوكهم ، وهذا أمر من الأهمية بمكان .

ولأولى الألباب موقف متميز من الآيات المتحدثة عن صفات الله ، وما فيها من متشابهات وهذا الموقف يتسم بالتفويض دون شغل العقل فى قضية لا يملك سبر غورها ، ولا إدراك مداها ، ولا يخرج من البحث فيها إلا معنى وبلا طائل ، مقتفياً بما توحى به هذه الصفات

---

(١) البقرة / ١٩٧ .
(٢) المائدة / ١٠٠ . والطلاق / ١٠ .
(٣) الزمر / ١٧ ، ١٨ .

من جلال وكمال وكفى فيقول تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب)[1] .

(١) آل عمران / ٧ .

الفصل الثالث

العقيدة وأثرها في الأخلاق والسلوك

١ ــ الإيمان بالسنن الكونية .

٢ ــ العقيدة الصحيحة تدعم حقوق الإنسان (الحرية ــ الإخاء ــ المساواة ــ الخطأ والتوبة) .

٣ ــ الالتزام بالشريعة .

٤ ــ مراقبة الله في السر والعلن .

٥ ــ إحسان العمل .

٦ ــ الهداية .

٧ ــ التضحية والفداء .

٨ ــ القصد والاعتدال .

٩ ــ الصبر .

١ ـ الإيمان بالسنن الكونية

مما تثمره العقيدة القويمة فى أخلاق المسلم وسلوكه تصويب نظرته للحياة ، فيؤمن بسننها ، ويربط المسببات بأسبابها .

والإيمان بسنن الله الكونية مظهر لصحة العقيدة ، ولا تستقيم العقيدة بدون هذا الإيمان .

وقد وعدنا الله تعالى بأن سننه الكونية إذا عرفناها ستوصل غير المؤمنين إلى الإيمان الصحيح فقال سبحانه : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[1] .

وعاتب المسلمين الذين قصروا يوم أحد فى حق الإيمان بالسنن الكونية عندما تهاون الرماة فى تنفيذ الأمر فأعطوا الفرصة للمشركين ، وتحولت المعركة لصالحهم ، وأحس المسلمون بمشاعر الحزن والوهن والضعف فقال لهم سبحانه ، مذكراً إياهم بضرورة الإيمان بسنن الكون ، وحركة الأيام ودولاتها فقال تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس)[2] .

بل إن الله تعالى أكد أن الإسلام الحق ، ورسالته الراشدة يعتمدان على الدين الحق أكثر من الخوارق ، وأن النبى عليه الصلاة والسلام

---

(١) فصلت/ ٥٣ . (٢) آل عمران /١٣٧ - ١٤٠ والآية ١٣٨ (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) .

لاينبغى له أن يجارى قومه فيما طلبوه من خوارق، وعليهم أن يلتمسوا الاقناع ، وأسبابه متوافرة من كتاب الله تعالى فيقول تعالى : (وقالوا لولا نزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)[1] .

ثم قال تعالى لنبيه : (وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين)[2] .

والتحذير من الجهل فى القرآن لم يأت إلا بشأن نسيان السنن الكونية .

فقال تعالى لنبيه نوح عليه السلام الذى طلب من ربه — بطريق غير مباشر — الصفح عن ابنه فقال : (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين)[3] .

وقد سلك النبى عليه الصلاة والسلام منهجاً تربويا فى دفع أصحابه إلى الإيمان بالسنن ، لكى ينأى بهم عن ربط حياتهم بخوارق ينتظرونها .

رأى رجلا يلازم المسجد للعبادة ، لا يكاد يبرحه ، فقال : من يأتى لهذا الرجل برزقه ؟ قالوا : أخوه ، قال : أخوه أعبد منه .

(١) العنكبوت/ ٥٠ ، ٥١ . (٢) الأنعام/ ٣٥ . (٣) هود/ ٤٦ .

وجاء أعرابي تغالبه لهجة البادية وأسلوبها فى التصرف ، فقال: من فيكم محمد ؟ ورآها النبي عليه الصلاة والسلام فرصة متاحة لدرس السنن الكونية ، فسأل الأعرابي : وأين ناقتك ؟ قال : تركتها بباب المسجد وتوكلت على الله ، فقال : اعقلها وتوكل .

فى هذه العبارة ، الوجيزة والمعبرة ربط النبي صلى الله عليه وسلم بين قضيتين من قضايا العقيدة ، لا تتناقضان بل تتكاملان هما : التوكل على الله والإيمان بالسنن الكونية أو الأخذ بالأسباب .

ومن هنا جاء فى النصيحة النبوية الكريمة التى تكشف عن أسباب القوة ليحرص عليها المؤمنون ، صارفة إياهم عما يثبط العزم ، ويوحي بالخمول فقال: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن مسك شئ فلا تقل لو كان كذا كان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

والعمل الجاد فى شريعة الإسلام تدفع إليه عقيدة هادية، راشدة ، ويعد من أعظم القيم فى هذه الحياة يقول تعالى :(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور) .

وحديث التوكل الذى غفل بعض الناس عن معناه ، وفسروه بمعنى يوحي بالتواكل ، والذى جاء فيه « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » نرى فيه على عكس ما تصور القوم ؛ إذ هو دعوة للعمل بمقتضيات السنن ؛

إذ جاء فيه تغدو وتروح ، والغدو والرواح حركة دائبة من أجل الرزق ، وليس فيها ما يدل على الكسل أو الخمول .

وقد سار عمر بن الخطاب على هذا النهج القويم ، فدعم قواعد الدولة الإسلامية العادلة بنظرة عميقة ، وأفق واسع ، قائم على أساس الإيمان بالسنن ، وذلك عندما دون الدواوين وأقام الشرطة ، ونظام البريد ، ومكافحة الآفات والمجاعات .

وله فى هذا الصدد حكمة عظيمة ؟ ! إذ يقول رضى الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ! !

وله موقف عظيم فى فهم السنن ، وإقامة السلوك على أساسها ، مصداقاً لما وجد أنه من عقيدة قويمة .

ذلك الموقف وهو على أبواب فلسطين ؛ ليوقع الصلح مع كبير أساقفتها ، وعلم بانتشار وباء الطاعون فتردد فى الدخول حتى قال له بعض من معه : أتفر من قدر الله ؟ قال : بل نفر من قدر الله إلى قدر الله . وفى هذا الموقف ذكرهم عبد الرحمن بن عوف بحديث النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن وباء الطاعون ، والذى وضع به أساس الحجر الصحى ؛ إذ قال ما معناه . . . إذا ظهر الطاعون فى بلد وأنتم فيها لا تخرجوا منها وإن كنتم خارجها لا تدخلوا فيها .

وعندما غزا المجتمع الإسلامى الفكر الجبرى ، والذى حول عقيدة الكثيرين عن مسارها الصحيح وجدنا دعوة التراخى ، والكفر

بالقوانين التى أقام عليها كونه العظيم ، وسمعنا مثل هذا الشاعر :

جرى قلم القضاء بما يكون   فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق   ويرزق فى غشاوته الجنين

وسمعنا الآخر ، القائل بالجبر ، والساخط على ربه الذى كلفه وهو مجبور فيقول :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

والإسلام الحق ، وعقيدته الراشدة برئ من هذا ومن ذاك .

٢ ـ العقيدة الصحيحة تدعم حقوق الإنسان

قد سبق لنا حديث فيما وراء « لا إله إلا الله » من معطيات ، عظيمة الدلالة .

فى مقدمتها الحرية التى ينعم بها الإنسان فى أوسع مدى عندما يتجه بعبوديته لله وحده ، وتكون « لا إله إلا الله » الحكم فى مقاله ومسلكه ، فالعبودية لله ، لا تسمح بعبودية لسواه ، وتدفع الإنسان إلى الشعور بالقوة والاعتزاز فى مواجهة البشر جميعاً .

والعبودية لله وحده ، تذيب الفوارق بين الطبقات سواء أكانت فى الجنس أو اللون ، أو المنزلة الاجتماعية « ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » .

وهكذا تدعم عقيدة الإسلام حقاً آخر من حقوق الإنسان على الأرض وهو المساواة ، وفى سبيل دعم هذا المبدأ وتأكيده قال صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » .

والعقيدة تدعم حق الإخاء بين البشر ؛ إذ تمنحهم التصور الصحيح للحياة والناس ومنشأ الحياة ومنتهاها ؛ إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » .

والقرآن الكريم أكد هذه الأخوة عندما يتحدث إلى البشر عن أصل أخوتهم ، فيقول : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)[1] .

كما أكد حديث الأخوة عندما وصف الرسل بالأخوة لأقوامهم الذين أرسلوا فيهم ، فيقول : « وإلى عاد أخاهم هوداً » (واذكر أخا عاد) (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) (وإلى مدين أخاهم شعيباً)[2] .

وهناك حق آخر تمنحه عقيدة الإسلام للإنسان ، فلا يمنحه هذا الحق تشريع بشرى .

وهو حق الخطأ ؛ إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » فالخطأ من حق الإنسان لما ينازعه من شهوات غالبة ، وأهواء ضارية ، وجهالة لاهية ، وأعطاه لهذا حق التوبة ، وأكد الله له فى كتابه أنه التواب ؛ إذ يقول : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات)[3] .

---

(١) سورة الحجرات / ١٣ (٢) سورة هود / ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤

(٣) سورة الشورى / ٢٥ .

ويؤكد القرآن الكريم منزلة العبد التائب ، ودرجته العظيمة عند الله ، وأنه يسمى الأواب كما أكدت الأحاديث أن رب العزة يفرح بعودة عبده التائب .

ولا يؤاخذ الإنسان على خطئه إلا بالاستمرار عليه والتمادى فيه . وعند هذا يتحول الخطأ إلى خطيئة .

وفى غيبة العقيدة الصحيحة يفسد التصور ، وتضطرب الأخلاق ، وينحرف السلوك وتهدر حرية الإنسان فيصبح عبداً للموتى ، وللأوهام وللمشعوذين والدجالين وتضيع المساواة ، حيث يتحول المجتمع إلى طبقات دينية ، ويفرض السلطان الروحى على العامة والدهماء .

ويفتقد الناس الإخاء الإنسانى ؛ إذ أنه متى انقطعت الصلة بالله ، قطعت وراءها كل الروابط والصلات .

ويفسد تصور الإنسان ويغيب عن وعيه الإسلامى المعنى الصحيح للخطيئة والمتاب .

٣ — الالتزام بالشريعة

إن الإيمان الصادق بالله ، والعبودية الخالصة له وحده ، تنتهى بالمسلم فى مجال السلوك إلى الثقة المطلقة فيما يأمر به الله ، وينصح به ، ويدعو إليه ، ويحذر منه .

ومن هذا المنطلق لابد أن يلتزم ، فيمتثل للأمر وينفذه ، ويبتعد عما نهى الله عنه ، ضرورة أن العليم الحكيم ، الخبير ، الذى ربى الوجود بنعمه وفضله لا يأمر إلا بما يصلح ويسعد ، ولا ينهى إلا عما

يفسد ويشقى (قل إن الله لايأمربالفحشاء أتقولون علىالله مالا تعلمون. قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين »[1] .

ومن هنا فكل ما جاء به القرآن من أحكام وشرائع نجد الآيات المتضمنة لذلك قد بدئت بنداء المؤمنين أو ختمت بشرط الإيمان مما يؤكد أن العقيدة السليمة تثمر العمل الصالح ، وعندما نرى العقيدة غير مثمرة فى الخلق والسلوك دل ذلك على انحرافها عن الجادة ، وبعدها عن الطريق السوى .

وإذا فسدت العقيدة فسد تصور الإنسان وتفكيره ، وحاق به سوء عمله .

والنداء الغالب فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا » لأنهم — أعنى أصحاب العقيدة السليمة — هم المعنيون بما فى القرآن الكريم من توجيه وتشريع ، وهو موجه لهم قبل غيرهم ألم يقل الله تعالى : (هدى للمتقين)[2] وقال : (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام)[3]

وأقل منه نداء الناس الذين لم يملكوا العقيدة يوجهون إلى نصائح عامة تلزمهم بالعقيدة السليمة وما وراءها من تبعات .

ونودى أهل الكتاب مرة واحدة فى القرآن الكريم (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس

---

(١) الأعراف/ ٢٨ ، ٢٩ .　　(٢) البقرة/ ٢ .

(٣) المائدة/ ١٦ .

وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا)[1] .

وفى الآية دعوة لهم إلى الإيمان بالقرآن الكريم ، وتحذير لهم من الكفر بالطاغوت .

وورد نداء الكافرين مرة واحدة ؛ إذ يقول تعالى ؛ (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم)[2] .

وبقيت الأمثلة التى نسوقها بياناً للربط بين العقيدة والسلوك .

ويقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم)[3] ويقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة)[4] .

ويقول تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون)[5] .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم)[6] .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم)[7] .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه)[8] .

---

(١) النساء / ٤٧ .
(٢) التحريم / ٧ .
(٣) الأحزاب / ٧٠ ، ٧١ .
(٤) آل عمران / ١٢٠ .
(٥) الأنفال / ٢ ، ٣ .
(٦) المائدة / ٩٥ .
(٧) البقرة / ٢٦٧ .
(٨) البقرة / ٢٨٢ .

وقال تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين)[1]
وقال تعالى : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين)[2]
وقال تعالى : (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)[3] .

هذه أمثلة لتشريعات القرآن الكريم وتوجيهاته ، وهى تشير بوضوح إلى الارتباط الوثيق بين العقيدة والسلوك ، وأن صحة العقيدة تثمر الالتزام الراشد والصحيح بالدين وشريعته وهديه .

٤ ــ مراقبة الله فى السر والعلن

العقيدة الإسلامية التى يدور محورها على كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » تبدأ بالمعرفة الصحيحة بالذات العلية ، وتنتهى باليقين به ، فيظل بحكم هذه العقيدة وبسلطانها مراقباً الله وحده ، يرجو رحمته ويخشى عذابه ، ويظل وجدانه ممتلئاً بالشعور بهيبته وسلطانه .. فيقبل على الخير احتساباً لله ، ويبتعد عن الشر ابتغاء مرضاته ، ولا يحيد عن طريقه قيد أنملة ..

وكان المسلم فى العصر الأول تسره النصيحة بتقوى الله .

ومراقبة الله هى الجنة الواقية التى يستعين بها المسلم فى رد غارات الإغراء والإغواء ، ليسلم له دينه ، وتستقيم خطته .

ومع استمرار المراقبة تسير حياة المؤمن بخطى معتدلة ، تلتزم الجادة ، لا تنحرف ولا تحيد حتى تبلغ غايتها .

---

(١) التوبة / ٦٢ .   (٢) الأنعام / ١١٨ .   (٣) الأنفال / ١ .

إن مراقبة الله هى الضوء الكشاف على الطريق ، تبصر المسلم بعثراته ، وتنبهه إلى عقباته ، وبقدر ما يجعل المسلم فى حسابه الخوف من الله ومراقبته ، يستحى من معصيته ، ويخجل من مخالفته ، والحياء من أعظم دلائل العقيدة ، وقالوا : « الحياء من الإيمان » كما جاء فى الحديث : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها « لا إله إلا الله » وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان » وجاء فى الحديث : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . إن الحياء بهذه المنزلة الخلقية الكبيرة ثمرة هامة من ثمرات العقيدة الراشدة .

٥ — إحسان العمل

تعد الأيدلوجية عند علماء الغرب والشرق هى الأساس لكل ما يصدر عن الفرد والجماعة من نشاط أو سلوك ، وعلى قدر استقامة الأيدلوجية التى تدين لها الأمة وقوتها واحكامها بقدر ما تتحرك الأمة على طريق الحضارة والمدنية .

والأيدلوجية مهما سمت لا يمكن أن تخلق المجتمع الفاضل ، اللهم إلا فى خيال الفيلسوف الذى وضع أسسها ، وابتكر دعائمها ، وذلك لأنها فكر بشرى ، فيها هناته ، وضعفه ومن هنا قد تصنع التقدم المادى والعمرانى وتخفق فى الوصول إلى السعادة النفسية ، والاستقرار المعنوى ، والأمن مع الذات ومع الناس .

لكن العقيدة الإسلامية ، وهى حق وصدق ؛ لأنها بيان حكيم من لدن العليم الخبير تكشف عن أبعاد الصلة بين العبد وربه ، وبين

الإنسان وأخيه الإنسان ، وبينه وبين غيره من الكائنات . . . هذه العقيدة التى من شأنها أن تمنح الفرد المسلم تصورات صادقة ، منها كما أسلفنا مراقبة الله فى السر والعلن .

ومنها إحسان العمل ، أى عمل ، للدين أعنى شئون العلاقة مع الله ، أو للدنيا أى فى مجال العلاقات مع الناس نجد صاحب العقيدة يتجه دائماً إلى الإجادة ، وإبراز العمل فى أقوم صورة وأحسنها .

ومن هنا تحدث القرآن الكريم عن الإحسان والمحسنين فى نحو خمسين موضعاً بين فيها مكانتهم عند الله ، ومنزلتهم من النعيم فى رحابه لما أثمرته العقيدة القويمة فيهم .

يقول الله تعالى : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم)(1) ويقول تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)(2) .

وكأن الإحسان ـ وهو ثمرة العقيدة ـ هو الضابط الصحيح لقضية الحلال والحرام ، كما بينت هذه الآية .

كما يقول تعالى فى ثواب المحسنين : (للذين أحسنوا الحسنى ، وزيادة)(3) .

وثواب المحسنين منه العاجل والآجل فيقول تعالى : (للذين أحسنوا هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين)(4) .

(1) آل عمران / 172 .
(2) المائدة / 93 .
(3) يونس / 26 .
(4) النحل / 30 .

والإحسان يلازم التقوى فى أكثر الآيات التى ورد فيها ، وما ذلك إلا لأنه ثمرتها ، إذ التقوى الصورة المكتملة للعقيدة الإسلامية بما تتطلبه من عبودية وإخلاص وتوحيد يقول تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون)[1] .

والإحسان بمعنى إجادة العمل واتقانه يستلزم الإخلاص ،والإنسان مطالب به فى علاقته مع الله ومع الناس ، ومع عناصر الكون كله .

وقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان عندما سأله عنه جبريل فقال :« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فجعله مقصورا على جانب العبادة .

وليس هذا تخصيصاً لأمر شامل ؛ لأن العبودية ـ وقد أوضحنا أبعادها ـ تنظم علاقات الإنسان فى الكون كله ، ولأجل هذا جعلها الله غاية لخلق المكلفين من مخلوقاته ، فقال سبحانه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

والإحسان مطلوب من المسلم فى كل علاقاته الإنسانية سواء أكان أباً ام ابناً ، أم زوجاً ، حاكما ، أو محكوماً ، فى القول أو فى الفعل ، وجاء فى هذا المجال هذه التوجيهات القرآنية فيقول تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا)[2] كما قال فى نصح بنى إسرائيل فى ميثاقهم المأخوذ عليهم : (وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحسانا ، وذى القربى ، واليتامى ،

---

(١) النحل / ١٢٨ .
(٢) الإسراء / ٢٣ .

والمساكين ، وقولوا للناس حسناً)[1] .

كما قال فى نصح المعتدلين من قوم قارون له : (وأحسن كما أحسن الله إليك)[2] .

وهذه آية فيها دعوة للإحسان ، مبينة ما يترتب عليه من سد الطريق على الأهواء ، وحماية المجتمع من الإغواء فيقول تعالى : (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً)[3] .

وكما أن إحسان القول فيه صيانة للمجتمع من البذاء والتبذل ، والاستهانة بالقيم ، فإحسان العمل صورة مشرقة للأمة صاحبة العقيدة.. وجاء فى ذلك توجيه النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

وجاءت الدعوة إلى الإحسان فى علاقات الإنسان مع الحيوان ، والنبات ، والجماد ، ليأخذ المجتمع القائم على العقيدة الرشيدة صورة سامية رفيعة ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان فى كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

كما ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ما فيه إفساد للزرع أو البناء ، أو تعذيب للطير والحيوان لما فى ذلك من مجافاة لمنهج الإحسان.

فيذكر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذى بلغ به العطش مبلغاً

---

(١) البقرة / ٨٣   (٢) القصص / ٧٧   (٣) الإسراء/ ٥٣ .

كبيراً ، وعندما جاء إلى البئر فرأى كلباً يلهث السرى من شدة العطش ، فقال لقد بلغ العطش بهذا الكلب ما بلغ بى ، فنزل البئر وملأ خفه وسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له .

إنه صورة للإحسان النابع من قلب تحكمه العبودية لله وحده ، كما يفعل الرجل الذى يميط الأذى عن طريق الناس ، رغبة منه فى ألا يحل السوء بأحد .

٦ ــ الهداية

من أبرز آثار العقيدة الإسلامية فى الأخلاق والسلوك . . . أنها تهدى ، وهدايتها فى تقديرى أنها تمنح الإنسان التصور السديد والصحيح للأشياء ، فيعرف مواطن الخير ، وتستبين له وجوه الحق ، ويكون على بصر بأسباب المخاوف والشرور ، وبناء على هذا يرسم سلوكه وخطته فى الحياة ومسيرته فيها على ضوء ما تهديه إليه عقيدته .

فالهداية حاسة أخرى يملكها المؤمنون الصادقون الذين صلحت عقيدتهم ، واستقامت مع الله خطتهم فإذا بهم ـ فيما يعملون ـ موفقون ، ـ وفيما يقولون ـ مسددون .

من التوجيهات القرآنية السديدة : (واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم)[1] .

فما العلم الذى تمنحه التقوى للمتقين ؟ إنه الإدارك السليم ، والمعرفة

---

(١) البقرة / ٢٨٢ .

الصحيحة بالأشياء فمع العقيدة الصحيحة ينزل الناس منازلهم ، ويمنح كل إنسان قدره ، ويعطى كل ذى حق حقه .

ويقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم)[1] .

وهكذا كما تبين هـذه الآية تمنح العقيدة السليمة القائمة على الخوف من الله وحـده صاحبها قدرة عقلية تمكنه من أن يميز بين الخبيث والطيب ، وأن ينأى بنفسه عن موضع فيه ريبة أو شبهة .

وجاء هذا المعنى فى هذه الآية أيضاً ثمرة للعقيدة فيقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم)[2] .

وكما أسلفنا لا تثمر العقيدة هداية إلا إذا كانت قوية ، بعيدة عن الزيف والدجل ، سائرة على منهج توحيد العبودية لله ، فإن شابها انحراف ، أو زيغ تصبح كحاسة شلت ، أو كعين سلب بصرها ، أو كمولد للكهرباء اختلت أجزاؤه فلا يصدر عنه إلا الظلام القاتم .

إن تأثير العقيدة فى ترشيد صاحبها وحمله على الخير ، وصرفه عن الشر أمر لا ريب فيه وهى فى حقيقتها مثوبة من الله لمن استقام إيمانهم ، وهى بعينها التوفيق الذى لا يكون إلا من الله ، كما لا يكون إلا لمن يستحقه ومن هو أهل له من عباد الله ، والذى لم يذكر فى القرآن

---

(١) الأنفال / ٢٩ .

(٢) الحديد / ٢٨ .

الكريم إلا مرة واحدة على لسان نبي الله شعيب إذ قال : (وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب)[1] .

وقد ربط القرآن الكريم الهداية بالإيمان الصحيح فى موضع ، ونفاها نفيا قاطعاً عن غير المؤمنين فى موضع آخر ، وذلك لكى تستقيم الحجة من وجهيها .

يقول تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم)[2] .

وجاء نفى الهداية عن غير المؤمن فى هذا الموضع : (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ، ولهم عذاب أليم)[3] .

كما قال تعالى : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم سبيلا)[4] وقال فى السورة نفسها : (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم طريقاً)[5] .

فقد أكدت هاتان الآيتان ما أكدته الآية السابقة من أن فاسد العقيدة تعطلت فيه حاسة الهداية .

كما فصل هدايته سبحانه للمؤمنين بقوله : (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم)[6] .

---

(١) هود / ٨٨ .
(٢) يونس / ٩ .
(٣) النحل / ١٠٤ .
(٤) النساء / ١٣٧ .
(٥) النساء / ١٦٨ .
(٦) المائدة / ١٦ .

فالهداية إلى سبل السلام وإلى الصراط المستقيم نتيجة لازمة من قانون الله لاتباع المنهج الذى اختاره ، وارتضاه .

وإذا كانت الهداية الممنوحة لأصحاب العقيدة تعنى فى الدنيا البصر بالحلال والحرام ، ومواقع الخير والشر ، فإن منها هداية فى الآخرة لمكان النعيم لهؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله دون عقيدتهم ، فيقول سبحانه : (والذين قتلوا فى سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم)[1] .

وهذه الهداية الإلهية التى تشير إليها الآيات ثمرة للإيمان الصحيح ، تسبقها هدايات أخرى تختلف عنها ، فى أنها ممنوحة للجميع ، لايختلف فيها إنسان عن إنسان مثل هداية الفطرة ، إذ فطر كل بنى الإنسان على الإيمان بالربوبية ، وهداية السمع والبصر والعقل ، يقول تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)[2] (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)[3] وهناك هداية ثالثة وهى هداية الرسل الذين أرسلهم الله كما قال : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)[4] .

والانتفاع بهذه الهدايات بالاستمساك بالعقيدة الصحيحة ، والتزام مناهج الشرع ينشأ عنه ـ كما أسلفنا ـ المثوبة بالهداية الرابعة التى بسطنا القول فيها .

---

(١) محمد/ ٤ ، ٥ ، ٦ .
(٢) الشمس/ ٧ ، ٨ .
(٣) الإنسان/ ٣ .
(٤) النساء/ ١٦٥ .

٧ – التضحية والفداء

العقيدة الصحيحة ، الناشئة عن تعقل وبصيرة ، والتماس للبراهين القاطعة من القرآن الكريم ، وكتاب الكون العظيم ، لابد أن يصاحبها مع هذا الوضوح قوة اليقين ، وانتفاء الارتياب .

ونتيجة لهذا فصاحب العقيدة لا يقعد عن تضحية ، ولا يقصر فى بذل ، ولا يقبض يده عن عطاء وإيمانه بالعطاء لا حدود له حتى لو كلفه هذا البذل نفسه .

وقد بين القرآن الكريم ارتباط العقيدة بالعطاء السمح بلا حدود فقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .[1]

فمقياس صدق العقيدة ، كما تحدده الآية يبدو فى الالتزام بسنة الجهاد .

والصفقة الإلهية مع أصحاب العقيدة القويمة ، أساسها بذل هؤلاء لأغلى ما يملكون فيها ليكونوا أهلا لدار النعيم التى سيورثها الله للمتقين ، فقال تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم)[2] .

---

(١) الحجرات / ١٥ (٢) التوبة / ١١١ .

كما كشف القرآن الكريم عن مكانتهم فى البذل والعطاء ، وما استحقوه لأجلها من منزلة عند الله ، فقال تعالى : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم)[1] .

وجاء هذا البيان فى هذه الآية رداً على تصور قريش أنه يكفيهم للنجاة عند الله سقايتهم للحجيج ، وقيامهم على شئون البيت الحرام ، وأن الإيمان ادعاء بلا بلاء ، إذ قال تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين)[2] .

وفى كل موطن فى القرآن الكريم فيه بذل وعطاء ، أو فيه تضحية وفداء تجد ذلك كله يتم فى رحاب العقيدة : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب)[3] .

والجهر بالحق فى مواجهة الظلم والظالمين من أعظم مواقف الفداء التى تدفع إليها دائماً عقيدة قوية وإيمان مستقيم .

---

(١) التوبة / ٢٠ ، ٢١ .   (٢) التوبة / ١٩ .
(٣) غافر / ٢٨ .

وحديث القرآن فى سورة غافر عن مؤمن آل فرعون ، وتصديه لبغى القوم فى حكمة بالغة ، وموعظة مؤثرة ، وشجاعة نادرة دليل صريح على ما تدفع إليه العقيدة من تضحية .

ومواقف الرسل من أقوامهم ، صورة مشرفة للعقيدة حين تدفع صاحبها إلى البذل والعطاء .

وبمقدار ما يملكه صاحب العقيدة من يقين يكون مدى بذله وعطائه .

ومعنا مثلان :

أولهما : إبراهيم عليه السلام يرى فى المنام أنه يذبح وحيده اسماعيل ، فيسارع إلى التنفيذ فى يقين عظيم ، وإصرار على الاستجابة برغم فداحة التضحية ، وكان هذا قمة اليقين فى ذلك ، والرضا بما يحكم به ؛ ولذا قال الله تعالى متحدثاً عن عطاء الأب والإبن جميعاً (فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين)[1] .

وهنا يمر إيمان إبراهيم بامتحان عصيب ، ويواجه بفداء فوق طاقة البشر ، ويتجاوز إبراهيم هذا الامتحان بما وصفه الله به من صدق وإحسان .

ثانيهما : أم موسى : تملك إيماناً قوياً بالله ، وفى أعصب موقف يمر بقلب الأم ؛ إذ تحس بالأخطار تحيط بمولودها ، ويأتيها وحى

---

(١) الصافات/ ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

الله يدعوها إلى سلوك سبيل يكفل الأمن لمن تخاف عليه ، وفيه فى الوقت نفسه ابتلاء لإيمانها بالله ، وثقتها فيه ، وفى هذا الوحى أمران ، ونهيان ، وبشريان (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه ، فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين)[1] .

ووضعت طفلها فى التابوت ، ثم ألقت به فى اليم ، وحقق الله وعده ، فربط على قلب الأم فاطمأنت وهيأ للطفل الأمن ، ويسر له أمر العودة ليرضع منها ، ومع العودة البشرى بالرسالة .

وهكذا بالعقيدة الصحيحة ، تحيا القيم ، وتعز الأمم ، حينما يقاسون مرارة التضحية ، ويعانون بلاء البذل والفداء .

أما أصحاب العقيدة الخربة ، والإيمان السقيم فإنه يموت بين جوانحهم بواعث العطاء ، ودوافع الفداء ، وقد قالها المنافق القديم رأس المنافقين : عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى فى الطريق إلى أحـــد ، قال : ما ندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؟ ! ثم رجع ، ورجع معه ثلاثمائة هم أهل النفاق فى المدينة .

وقال تعالى فى وصف هذا الضعف فى قلوب المنافقين ومن فسدت عقيدتهم : (ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة ، وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم)[2].

---

(١) القصص / ٧ .   (٢) محمد / ٢٠ ، ٢١ .

ذلك لأن ضعيف الإيمان فاسد العقيدة ، فقد الباعث ، ومات فى ضميره الدافع وحيل بينه وبين الغاية الشريفة التى تحرك إلى البذل ، وتدفع إلى العطاء .

٨ — القصد والاعتدال

العقيدة الصحيحة تكسب صاحبها التصور الصحيح ، والإدراك الرشيد .

هذه قضية عرفناها .

ومن هنا صاحب العقيدة يسير فى مسلكه الدينى على منهج صحيح .

فهو لا يغلو ولا يتنطع ؛ لأن الغلو بعد عن الحق ، وتجاوز لحدود العدل ولهذا نهى الله تعالى عنه أهل الكتاب فقال : (يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل)[1] .

كما قال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)[2] .

فهذه الآية تكشف عن أبرز جانب من جوانب الغلو وهو العقيدة ، حيث غالى النصارى فى شخص المسيح حتى تصوروا أنه ابن الله مع أنه عبده ورسوله .

---

(١) المائدة / ٧٧ .

(٢) النساء / ١٧١ .

فعندما تستقيم عقيدة الإنسان ، يستقيم دينه كله بعبوديته لله ، لأن توجيه أى مظهر من مظاهر العبودية خروج عن القصد والاعتدال يقول تعالى : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر ، فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور)[1] .

فالمقتصدون ظلوا على إخلاصهم واعتدالهم .

وعلاقته بالله وثيقة وقوية إذا خالطه الإغراء لا يلبث أن يتيقظ ويعى ، ومن هنا عندما أخبرنا الله عن أهل الجنة ، الذين جحدوا النعمة ، وبدلوها كفراً ، فذكر أن واحداً منهم استيقظ ضميره ووعى ، من هو ؟ إنه الأوسط أى الأعدل والأخير ، والأكثر معرفة بالله (قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين)[2] ..

ويؤدى شعائر العبادة بيسر واعتدال ، ثقة منهم بأن المجهد نفسه فى السير ، يضيع جهده ، ولا يصل إلى غايته ، وأن التشدد فى الدين مهلكة .

فى كل مسالكهم أعقل من أن يسرفوا ، وأكرم من أن يقتروا .

وصف الله عباده الذين صحت عبوديتهم لربهم فقال : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً)[3].

والخروج عن القصد دليل على فساد الاعتقاد ، إذ يقول تعالى :

---

(١) لقمان / ٣٢ . (٢) القلم / ٢٨ ، ٢٩ . (٣) الفرقان / ٦٧ .

(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا)[1]

فأخوة المبذر للشيطان كما تذكر الآية تؤكد فساد عقيدته ، كما تؤكد ضلال سعيه .

إن القصد والاعتدال صورة من صور نجاح العقيدة النقية فى تقويم السلوك .

٩ ـ الصبر

أصحاب العقيدة الصحيحة ، يملكون طاقة لا حد لها من الفكر القويم ، والنظر الصائب ، ولذا كل من يرفع شعار العقيدة الحنيفية ، لابد له أن يوطن نفسه على تبعاتها ، وينهض بأعبائها .. وأصحابها أصحاب همم عالية ، وطلاب منازل رفيعة .

ومن هنا من يرفع شعار الإيمان لا يترك ودعواه ، واقتضت حكمة الله أن يبتلى تمحيصا له ، واختبارا ليقينه .

يقول تعالى متحدثاً عن أصحاب العقيدة : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين)[2] .

فابتلاء المؤمن تمحيصاً لعقيدته ، وفتنته بالدنيا ، وما فيها من زينة ومتاع أو محن وآلام ـ منهج إلهى حكيم فى إعداد المؤمنين لأداء رسالتهم فى الحياة يقول تعالى (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)[3] (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم)[4] .

---

(١) الإسراء / ٢٧ .
(٢) العنكبوت / ٢ ، ٣ .
(٣) آل عمران / ١٤١
(٤) محمد / ٣١ .

وصاحب العقيدة فى مواجهة الابتلاء – إن صحت عقيدته – يواجهه بسلاح الصبر .

وهذا الخلق ناشىء عن ثقة قوية فيما يقضى به الله ، ويقدره ، وأن الحكمة الإلهية وراء قضائه الحكيم خير المؤمن وبره ، وإن كان فى ظاهره مرارة أو ألم ، فثقة المؤمن أن المرارة زائلة ، وأن الألم هين بجانب ما وراء القضاء الإلهى من خير وبر .

ولذلك يضع المؤمن فى حسابه هذا القانون الإلهى الحكيم .

(وعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)[1] ، (كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون)[2] .

والآية الأخيرة تؤكد للمؤمن ، صاحب اليقين أن الحكمة العظيمة وراء القضاء الإلهى العادل إن عزبت عن أفهام البشر ، يعلمها علام الغيوب .

ومن هنا جاءت النصيحة الإلهية لأصحاب العقيدة تدعوهم لأمرين : أولهما : الصبر ، وثانيهما الصلاة ، مؤكدة معية الله للصابرين .

ومن هم الصابرون كما عرفت بهم الآيات ؟

هم الذين يسلمون الأمر لله عند المحنة ، واثقين أن مرجع الجميع إلى الله.

وهؤلاء يستحقون المنزلة التى ذكرتها الآيات : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ، ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم

---

(١) النساء/١٩ .   (٢) البقرة/٢١٦ .

بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)[1] .

وميدان الابتلاء لأصحاب العقيدة متعدد النواحى ، فهناك ابتلاء بالخوف وهناك ابتلاء بالجوع ، وهناك ابتلاء بنقص الأموال ، وهناك ابتلاء بفقد عزيز أو قريب ، وهناك ابتلاء بذهاب الثمار وتلف الزروع .

والحياة الدنيا على سعتها فى تصور صاحب العقيدة السليمة ، وفى حساب المؤمن الواعى دار ابتلاء بكل صروفها ، وعلى اختلاف ألوانها ، ففى كل موقع فتنة ، وفى كل خطوة يخطوها الإنسان ابتلاء ، والله تبارك وتعالى يختار لكل عبد من عباده بلاءه ، ومن الناس من يبتليهم الله بالخير ، ومن الناس من يبتليهم الله بالشر ، كما قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)[2] .

وهذا الفهم الصحيح فى مواجهة قضايا الحياة ، وأحداثها المتناثرة ، ووقائعها المثيرة المذهلة يجعل حياة المؤمن هادئة ، هانئة مستقرة ، يحكمها نمط واحد ويفسرها فهم واحد ، وتصور واحد ، نابع من عقيدة قويمة هى أن المعبود بحق هو الله ، له الحول ، والطول ، وله الخلق والأمر ، ومن عداه عباد له لا يميز بعضهم عن بعض إلا قوة العقيدة ، واستقامة السلوك .

---

(١) البقرة من ١٥٢ إلى ١٥٧ . (٢) الأنبياء / ٣٥ .

وأن المعبود الواحد عندما يقضى لا مرد لقضائه ، وفى قضائه دائماً الحق والخير والعدل .

وماذا بعد هذا كله ؟

حسب المؤمن الصادق أن عقيدته القويمة تمنحه الرضا ، فهو راض عن نفسه ، وعمن حوله ، وعن رسالته فى الحياة ، تغمره سعادة من الداخل ، تجعل الحياة أمامه مشرقة زاهرة ، وآماله فى الله وفى الدار الآخرة ظليلة وارفة ، ولم تكن مجرد أمانى ناشئة من فراغ ، وإنما هى يقين ناشئ عن ثقة عميقة فى قول رب العالمين (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا)[1] .

ونعمة الرضا توضحها هذه الآية : (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه)[2] .

هذه هى العقيدة الصحيحة . . .

فكم من خير يضيعه الإنسان إذا انحرف عنها ! !

وكم من فلاح يصل إليه ، وخير يستحوذه ويحصل عليه إذا استمسك بها وحرص عليها .

وماذا لنا بعد هذا البيان : (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .

---

(١) الكهف / ٣٠ .

(٢) البينة / آخر آية .

خاتمة

من خلال هذه الدراسة التى قدمتها فى صورتها الجديدة عن عقيدة الإسلام يستبين لنا عدد من الحقائق والقواعد ، والقوانين التى تكشف عن سمو الجانب الاعتقادى فى الإسلام ، وعن آثاره العميقة فى يقظة المجتمع ووعيه وصدق تصوره ، وسلامة تفكيره ، وصحة تقديره للأشياء من حوله ، كما تبين مدى تقويمه للأخلاق ، وتوجيهه السديد لحركة الإنسان وسلوكه .

ومن هذه الحقائق . . .

- عقيدة الإسلام أول (أيدلوجية) فى تاريخ البشر تستند إليها حقوق الإنسان وهى الحرية والإخاء والمساواة ، ويضاف إليها حق الخطأ ، وهذه ليست حقيقة فكرية فحسب ، ولكنها حقيقة فكرية وعملية .
- عقيدة الإسلام بما تعتمد عليه من أسس عقلية ومنطقية سديدة وقويمة ترفض منطق الإكراه ، وتأبى أن يجبر أحد عليها دون الإقناع ، وأسلوب إملاء الرأى دون مناقشة أسلوب مردود على صاحبه ، ولهذا عندما حدثنا الله عن نفسه ، وأرشدنا إلى نواحى عظمته وألوهيته ، ولكونها كلها معقولة لم يرض سبحانه للمؤمن بها إلا أن يكون حراً مختاراً ؛ ولذا قال سبحانه بعد آية الكرسى التى تناولت المعانى التى أسلفتها (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) .

* مجرد الإيمان بالله تعالى لا يكفى لفلاح الدنيا وسعادة الآخرة بل لابد من إخلاص الإيمان لله بتوجيه العبودية له وحده ، قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .
* لفظ الجلالة (الله) اختصت به اللغة العربية من بين لغات العالم ، والألفاظ التى تعبر عن الذات الإلهية فى اللغات الأخرى ليس لها معطيات لفظ الجلالة .
* كل عقائد التوحيد من نبوات وسمعيات ، وإيمان بعالم الغيب كعالم الشهادة يدخل فى دائرة لا إله إلا الله التى تمثل العلاقة الصحيحة بين الله تعالى وخلقه .
* الإيمان بسنن الله الكونية عنصر أساسى فى عقيدة الإسلام ، والمسلم الذى يهمل الإيمان بالسنن الكونية تحت ستار التوكل على الله لا يقل خطأ ، ولا خطراً عن الملحد الذى لا يضع فى حسابه قدرة الخالق العظيم .
* كل أنواع الخرافات والدجل السائدة فى المجتمعات الإسلامية غير الواعية تتنافى تماماً مع عقيدة الإخلاص التى جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام .
* العمل والبذل فى الإسلام يجب أن يكون لله وحده ، وعلى المسلم الواعى أن يسقط الناس من حسابه ، ولا يجعلهم غاية له فى مثل هذه الأعمال العظيمة ، وإلا ضيع جهده فى غير طائل ، فلم يكتسب الحمد ، ولم يستبق الجهد .

* عقيدة الإسلام دعامة حضارية شامخة تستهدف البناء العلمى الصحيح لعقلية الإنسان وأبعاد تفكيره ، ليكون فرداً بناء فى مجتمعه ، فالمجتمعات العظيمة ، تقوم على أكتاف أفراد عظماء .

* اتبع الإسلام منهج التفكر فى ملكوت الله ، والنظر فى السموات والأرض ، والسير التاريخى أو السير الفكرى - وسائل متعددة لتتحقق سكينة الإقناع للعقول المؤمنة ، ولتبهت بقوة الدليل القلوب المكابرة المخالفة .

* عبادة الله إطار شامل للسلوك الإنسانى على الأرض ؛ إذ تكون العبودية هى المهيمنة عليه ، وهى التى توجه سلوكه ، وتقود حركته الواعية فى ظلال الشريعة العادلة وقد قال تعالى : (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) .

* العقيدة الصحيحة تثمر العمل الصالح ، والخلق القويم ، وعندما تعجز العقيدة عن تحقيق هذا الجانب دل ذلك على فسادها ، وأنها عاطفة بلا يقين ، ودعوى بلا دليل ، وشجرة بلا ثمر .

* وأخيراً أذكر فى ختام هذه القواعد والقوانين قوله تبارك وتعالى فى مجال الإيمان بالقدر ، والتسليم المطلق له : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم) .

والحمد لله رب العالمين . .

الفهرس